

يوميات

روائع لا تُكتب

اثنتان وخمسون يومًا من العمل المؤقت في مخيم عين الحلوة

علاء كمال العلي

روائع لا تُكتب

يوميات اثنين وخمسين يوماً من العمل المؤقت في مخيم عين الحلوة

علاء كمال العلي

نسخة للنشر— تشرين الثاني ٢٠٢٦
جميع حقوق العودة محفوظة للمؤلف.

تقديم

النادي الثقافي الفلسطيني

— • —

من قلب المخيم، إلى المكتبات والقراء.

ينطلق النادي الثقافي الفلسطيني من إيمانه بأن الثقافة الفلسطينية ليست ترفاً، بل مساحة لحفظ الذاكرة، وصون التجربة، وإيصال أصوات الناس كما عاشوها. في «روائح لا تُكتب»، لا يقدم علاء كمال العلي وصفاً ليوميات عمل مؤقت فحسب؛ بل يفتح نافذة على تفاصيل العمل الصعبة والمخفية في أزقة مخيم عين الحلوة، وعلى التحولات الصغيرة التي يتركها التعب والخوف والرفقة في الإنسان.

وجدنا في هذه اليوميات شهادة صادقة وقريبة من الناس، مكتوبة من داخل التجربة لا من بعيد. لذلك قرر النادي أن يتولى طباعة هذا الكتيب وتقديمه إلى القراء، دعماً لصوت الكاتب وللکلمة التي تخرج من قلب المخيم.

نضع هذه الصفحات بين أيديكم، آملين أن تُقرأ بوصفها حكاية عن كرامة العمل، وعن الإنسان حين يواجه ما يخشاه، ثم يكتشف أن الطريق يغيّره خطوةً خطوة.

النادي الثقافي الفلسطيني

— • —

«الخيال يستطيع أن يصنع صعوبة كبيرة،
بينما يأتي الواقع أحياناً أكثر تواضعاً ورحمة.»

من اليوم الأول

— • —

المحتويات

تقديم النادي الثقافي الفلسطيني العربي

القسم الأول | الخوف أثقل من العربة
من اليوم ١ إلى اليوم ٨

القسم الثاني | الجسد يتعلّم
من اليوم ٩ إلى اليوم ١٨

القسم الثالث | خريطة تُقرأ بالقدمين
من اليوم ١٩ إلى اليوم ٢٦

القسم الرابع | نصف الطريق
من اليوم ٢٧ إلى اليوم ٣٤

القسم الخامس | ما وراء الحاوية
من اليوم ٣٥ إلى اليوم ٤٤

القسم السادس | اليد التي تغيّرت
من اليوم ٤٥ إلى اليوم ٥٢

معجم صغير | عن الكاتب

القسم الأول

الخوف أثقل من العربة
من اليوم ١ إلى اليوم ٨



تمهيد

قبل عام تقريبًا، سجّلت اسمي على «روستر» برنامج المال مقابل العمل التابع للأونروا، كما يفعل كثيرون في مخيم عين الحلوة. كان التسجيل بالنسبة إليّ مجرد احتمال بعيد؛ ورقة تُضاف إلى ملفات كثيرة قد لا يلتفت إليها أحد. مضت الشهور حتى نسيت أنني سجّلت أصلًا. ثم جاء الاتصال. قيل لي إن اسمي خرج في المشروع، وإن عليّ أن أراجع لإتمام الإجراءات.

منذ تلك اللحظة، لم يعد المشروع فكرة، بل صار موعدًا يقترب كل يوم. حضرت محاضرة تعريفية، ووقّعت العقد الإلكتروني لشهري تموز وآب، بحد أقصى اثنين وخمسين يومًا، بما أن أيام الأحد إجازات؛ ست ساعات عمل يوميًا مقابل عشرين دولارًا أمريكيًا في اليوم. واستمعت إلى شرح عن شروط العمل والسلامة. في القاعة، كان كل شيء يبدو عاديًا إلا رأسي. كنت أوقّع اسمي، بينما يوقّع الخوف داخلي على عقد آخر.

لم يكن يقلقني الراتب ولا ساعات الدوام، بل طبيعة العمل نفسها. كنت أبني في مخيلتي صورًا متلاحقة: شاحنة نفايات، حرّ الصيف، تعب الجسد، نظرات الناس، وروائح المجارير. كل معلومة جديدة كانت تتحول في ذهني إلى فصل جديد من رواية تراجمية، حتى صرت أعيش اليوم الأول عشرات المرات قبل أن يأتي.

اتصل بي مدير المشروع، نبيل الأحمد، وأخبرني أن أراجع مكتب خدمات البيئة في مخيم عين الحلوة التابع للأونروا، وأني سأكون مع فادي أبو النجا ضمن فريق التسليك. عندما سمعت كلمة «التسليك»، شعرت أن كل الأبواب التي كنت أعلّق عليها آمالي قد أغلقت دفعة واحدة. تخيلت أنني سأقضي نهاري بين الريغارات والمجارير، وأن كل ما كنت أخشاه صار حقيقة. لكن الحقيقة كانت أكثر هدوءًا من الخيال، ووجدت نفسي أدوّن يومياتي كالآتي.

— • —

اليوم الأول ١ تموز ٢٠٢٦

وصلت إلى المكتب عند السادسة والنصف صباحًا. كان فادي ينتظرني. أعرفه منذ سنوات، فهو ابن جيراننا. رَحَّب بي، وجلست في المكتب. شربت قهوة وكأس ماء، ومضت ساعة ونصف لم يحدث فيها شيء مما كانت مخيلتي تصرخ به طوال الأيام الماضية.

بعدها جاء عماد، وأخذني في جولة قصيرة للتعرف إلى فريق العمل، ثم عدنا. خرج هو وفادي في مهمة، وبقيت وحدي في المكتب. استلمت عهدي: ملابس، وحذاء، وقفازات، وطاقية. ثم طلبت مكنسة وبدأت أكنس أرض المكتب، تنفيذًا لما قاله لي فادي صباحًا.

كانت المهمة بسيطة، لكنني شعرت بتعب خفيف؛ ليس لأن المكنسة ثقيلة، بل لأن الجسد الذي اعتاد السكون يحتاج وقتًا ليتصالح مع الحركة، ولأن القلق نفسه يستهلك من الطاقة أكثر مما يستهلكه العمل أحيانًا.

عند العاشرة صباحًا، قال لي فادي: «خذ عهدتك وفلّ».

خرجت من المكتب وأنا مرتاح نوعًا ما. طوال الأيام الماضية، كنت أقاتل أشباحًا لم تكن موجودة إلا في رأسي. لم يكن اليوم الأول جميلًا ولا سيئًا، لكنه كشف لي حقيقة بسيطة: الخيال يستطيع أن يصنع جحيمًا كاملاً، بينما يأتي الواقع أحيانًا أكثر تواضعًا ورحمة.

لعل أصعب ما واجهته لم يكن العمل، بل الانتظار الذي سبقه. فبين الإنسان واليوم الأول يقف الخوف أحيانًا ككاتب بارع؛ يؤلف رواية كاملة، ثم يكتشف البطل، عندما يفتح الباب أخيرًا، أنه دخل إلى قصة أخرى تمامًا.

— • —

اليوم الثاني ٢ تموز ٢٠٢٦

انتهت فترة التعارف. خرجت مع فادي وعماد إلى شوارع مخيم عين الحلوة. دخلنا أحد الأزقة. كان هناك ريفار — حفرة للصرف الصحي عليها غطاء معدني — فتحه فادي، وبدأ عماد يضرب في داخله سيخًا فولاذيًا، ثم وصله بآخر. اكتشف أن هناك حفرة بغطاء إسمنتي. فتحه فادي، فإذا بها ممتلئة. قال عماد: «هذا بئر إنكليزي». بعدها ملأت العربة بالخرا. أشار عماد إلى العربة وقال: «خذها إلى المزبلة».

دفعته قرابة خمسمئة متر حتى المزبلة. لم تكن مجرد عربة، بل وزنًا كاملاً يضغط على ذراعي وكتفي وظهري. كان كل متر أطول من الذي قبله. عندما وصلت، رفعتها وأفرغت حمولتها، ثم عدت.

طلب مني فادي وعماد أن أذهب إلى المكتب وأبلغ نبيل بأن هناك حفرة كبيرة ممتلئة تحتاج إلى فريق التعزيل. نقلت الرسالة، وبعد قليل وصل الفريق وتولى المهمة. أخبرني فادي لاحقًا أنه كان بإمكاننا تنفيذها نحن أيضًا. عندها فقط أدركت أنني نجوت، ولو مؤقتًا، من رحلات أخرى خرافية.

بعد ذلك لم تعد العربة تحمل خرا، بل صارت تحمل العدد والأدوات التي نحتاجها في المهمات. لكن رائحة الدقائق الأولى بقيت عالقة في الذاكرة أكثر من أي شيء آخر.

مشيت أكثر من ثمانية آلاف خطوة. كان حذاء السلامة يضغط على قدمي مع كل خطوة، وكانت حرارة الصيف تجعل الهواء نفسه يبدو ثقيلًا.

في نهاية الدوام، قال لي فادي وعماد إن هذا كان يومًا استثنائيًا، ومن أصعب الأيام. لا أعرف إن كانا يحاولان مواساتي أم أنهما كانا يقولان الحقيقة. عندما عدت إلى البيت وخلعت حذاء السلامة، اكتشفت ورماً صغيراً يشبه الدم على أحد أصابع قدمي. ربما لم يكن أكثر من أثر احتكاك يوم واحد، لكنني شعرت أنه أول توقيع تركه العمل على جسدي.

كل ما أعرفه أنني، للمرة الأولى في حياتي، دفعت عربة مليئة بالخرا عبر أزقة المخيم، واكتشفت أن بعض الأعمال لا يمكن فهمها من بعيد. لا بد أن تمسك بالمقبض، وتشعر بالوزن، وتسير.

— • —

اليوم الثالث

٣ تموز ٢٠٢٦

استيقظت وأنا أتوقع يومًا يشبه اليوم الثاني. لكن العمل، كما يبدو، لا يحب أن يكرر نفسه.

نظرت إلى الورم الصغير في إصبع قدمي. قررت أن أترك حذاء السلامة جانبا، وأن أرتدي حذائي الرياضي. كان القرار بسيطًا، لكنني اكتشفت مع أولى الخطوات أن الألم الذي ظننته جزءًا من العمل، كان في الحقيقة جزءًا من الحذاء.

خرجت مع عماد في مهمتين لتسليك المجاري؛ الأولى في السوق، والثانية في حي غرب الغوير. انتهتا بسرعة، ثم عدنا إلى مكتب خدمات البيئة في مخيم عين الحلوة.

خلال الطريق، اكتشفت أن عماد لا يسير في المخيم، بل يقرأه. يدخل زقاقًا ضيقًا دون أن يتردد، ينعطف عند زاوية تبدو لي مطابقة لعشرات الزوايا الأخرى، ثم يشرح لي: هنا السوق، وهناك غرب الغوير، ومن هذا الممر تصل إلى الحي الآخر. كنت أستمع إليه وأدرك أن ما يبدو لي متاهة، هو بالنسبة إليه خريطة محفوظة في الذاكرة.

بعد عودتنا إلى المكتب، أمسكت المكنسة وبدأت أكنس الحديقة الخلفية. كانت المهمة هادئة، بعيدة عن رائحة الخرا التي ملأت رأسي في اليوم السابق. للمرة الأولى منذ بدأت العمل، لم تكن عيناوي على الساعة. كنت منشغلًا بما أفعله، ولذلك مرّ الوقت من دون أن أشعر.

لا أزال لا أحب هذه المهنة، وربما لن أحبها يومًا. لكنني بدأت أفهمها. بدأت أفهم أن وراء كل زقاق في المخيم حكاية، وأن لكل عامل معرفة لا تظهر من بعيد، وأن بعض الأعمال لا تُفهم إلا حين تصبح جزءًا منها، ولو مؤقتًا.

— • —

اليوم الرابع

٤ تموز ٢٠٢٦

كان اليوم مختلفًا من ناحية الإيقاع، لا من ناحية العمل. خرجنا في مهمة مع عماد، ثم عدنا بسرعة إلى المكتب. لم يكن هناك ضغط كبير في العمل، بل فترات انتظار طويلة داخل المكتب، بينما كان باقي الشباب يخرجون في مهام ويتركوني أحيانًا وحدي.

الوقت في المكتب كان يمر ببطء. كنت أراقب الساعة أكثر مما أراقب أي شيء آخر. لحظات الفراغ كانت أثقل من لحظات العمل نفسها، وكأن غياب المهمة يجعل اليوم أطول.

بدأت ألاحظ أن طبيعة هذا العمل ليست ثابتة: يوم ثقيل يتبعه يوم أخف، حركة تتبعها فترات انتظار، تعب جسدي يقابله ملل ذهني.

— • —

اليوم الخامس

٦ تموز ٢٠٢٦

في طريقي إلى العمل، لاحظت تراكم النفايات على جوانب الشارع بعد عطلة يوم الأحد. بدا المشهد مختلفًا عن الأيام السابقة، وكأن يومًا واحدًا كان كافيًا ليترك أثره. راودني قلق صامت من أن يُطلب مني مرافقة فرق جمع النفايات.

سألت عماد عن مهمتنا، فقال: «عنا شغلة صغيرة قرب المكتب.» وحين حدثته على الذهاب، أجاب: «منروح بعد شوي.»

بعد قليل حضر فورمان المنطقة الوسطى، فالمخيم مقسم إلى ثلاث مناطق بيئية: شمالية ووسطى وجنوبية. أبلغ نبيل بوجود شكوى من أحد الزواريب

يحتاج إلى كنس، فخرجنا لمعاينة المكان. عندما عادا، سلّموني مكنسة، وطلبوا مني جرّ حاوية، ثم أعطوني قطعتي خشب تُستخدمان لجمع الزبالة من الأرض بعد الكنس.

كانت الحاوية ثقيلة. رافقت الفورمان حتى مدخل الزاروب، وهناك قال لي: «بتبلش من هون.» ثم تركني وعدت وحدي إلى العمل.

كان الزاروب طويلاً ومهماً. كل بضعة أمتار كنت أتوقف عن الكنس، ثم أنحني إلى الأرض لأجمع الزبالة بقطعتي الخشب. لم أفهم لماذا لا توجد أداة ذات مقبض طويل تقوم بهذه المهمة بدلاً من هذا الانحناء المتكرر. كان ظهري يؤلمني أصلاً، ومع كل مرة أنحني فيها كان الوجع يزداد. أما جرّ الحاوية فوق الأرض غير المستوية فكان يجعلني أتعثّر أكثر من مرة.

عندما انتهيت وعدت إلى المكتب، كان الدوام قد انتهى تقريباً. تركت الحاوية والمكنسة، وجلست دقائق ألثقت أنفاسي قبل أن أعود إلى البيت.

كانت أنفاسي متلاحقة، وصدري يعلو ويهبط بسرعة، وظهري يكاد يرفض الانتصاب. شعرت أن كل عضلة في جسدي تطلب مني شيئاً واحداً فقط: أن أتوقف. لم أكن متعباً فحسب، بل مستنزفاً إلى الحد الذي أصبحت فيه العودة إلى البيت آخر مهمة أملك القدرة على إنجازها.

— • —

اليوم السادس

٧ تموز ٢٠٢٦

وصلت إلى المكتب كعادتي في الصباح. لم أكن أعرف ماذا ينتظرني اليوم، لكن بعد الأيام الماضية، صرت أدرك أن التوقعات في هذا العمل نادراً ما تصيب.

خرجنا في مهمتين لتسليك المجاري، وكانتا أسهل بكثير من بعض المهام السابقة. لم يكن هناك تعب استثنائي، ولا موقف يستحق أن يُروى بالتفصيل. لكن ربما كانت أهمية هذا اليوم في شيء آخر.

بدأت ألاحظ قيمة العمل الذي يقوم به مكتب خدمات البيئة. قبل أن أبدأ العمل معهم، لم أكن أفكر كثيراً بما يحدث خلف المشهد. كان المخيم يتحرك أمامي

بشكل طبيعي، دون أن أسأل من ينظف، ومن يتابع الشكاوى، ومن يتدخل عندما تتعطل أمور تبدو بسيطة لكنها تؤثر على حياة الناس يوميًا.

خصوصًا في ساعات الصباح، عندما أخرج إلى العمل، أرى المخيم بشكل مختلف. أراه قبل أن يستيقظ تمامًا، قبل أن تختفي آثار الليل، وقبل أن تبدأ حركة الناس المعتادة.

والأغرب أن هذا العمل جعلني ألتقي بأشخاص لم أراهم منذ عشرات السنين. بعضهم كانوا زملاء مدرسة، مرّ أكثر من ثلاثين عامًا منذ آخر مرة رأيتهم فيها. فجأة يظهر وجه قديم في زقاق من أزقة المخيم، وكأن الزمن قرر أن يعيد فتح صفحة قديمة.

ربما هذه إحدى مفاجآت هذا العمل: لم أكن أظن أنني سأتعرف إلى المخيم من جديد، لا من خلال شوارعه فقط، بل من خلال الناس الذين يسكنونه.

— • —

اليوم السابع

٨ تموز ٢٠٢٦

مرّ هذا اليوم بهدوء. خرجنا في ثلاث مهمات، وأنهيناها بسرعة، من دون أن يحمل اليوم تعبًا استثنائيًا أو موقفًا كبيرًا يستحق أن يتصدر اليومية.

لكن كان فيه موقف صغير جعلني أبتسم. كانت مؤسسة KfW الممولة للمشروع قد أعطتنا بطاقة يمكن استخدامها إذا كان لدى أحدنا شكوى خلال فترة المشروع. مازحت عماد وقلت له: «معي الكارت، فيني أتشكى». سمعنا نبيل فقال ضاحكًا: «فيك تتشكى... عمعلّمك». وأشار إلى عماد. فقلت: «طبعًا رح أتشكى، لأن عماد عم يجرحلي مشاعري.» وانفجرنا جميعًا بالضحك.

في وقت لاحق.

لم يكن هذا اليوم يحمل شيئًا استثنائيًا. انتهت المهمات، انتهى الدوام، وعدت إلى البيت.

— • —

اليوم الثامن

٩ تموز ٢٠٢٦

بدأ اليوم كغيره. خرجنا مع عماد لتسليك المجاري. كنت قد وصفت هذه المهمة سابقًا بأنها سهلة، لكنها في الحقيقة ليست كذلك. هي أقل جهدًا من بعض الأعمال الأخرى، ويقتصر دوري فيها على جرّ العربّة، لكنها مهمة مقرّفة. الوقوف أمام ريغار مفتوح، وما يحمله من روائح الخراب، يجعلها تجربة يصعب الاعتياد عليها مهما بدت بسيطة من الخارج.

بعد ذلك عدنا إلى المكتب. وصلت شكوى عن زاوية تراكمت فيها النفايات ولم تُكنس. أخذت المكنسة وحاوية صغيرة وتوجهت إلى المكان. كانت الحاوية أخف بكثير من تلك التي جررتها قبل أيام، وكان الفرق واضحًا، لكنني مع ذلك تعثرت أكثر من مرة وأنا أجريها.

لم تكن المهمة صعبة. انتهيت من كنس الزاوية، ثم أخذت الحاوية إلى مكب الزبال، أفرغتها، وأعدتها إلى المكتب. كان يومًا عاديًا، أو هكذا بدا لي. لم أكن أعرف أنني، مع كل عربّة أسحبها وكل ريغار أفتحه وكل زاوية أنظفها، كنت أتعلم شيئًا لا علاقة له بالمهنة: كيف يصبح الشيء المقرّف جزءًا من يومك، من دون أن يصبح عاديًا تمامًا.

القسم الثاني

الجسد يتعلّم

من اليوم ٩ إلى اليوم ١٨



اليوم التاسع ١٠ تموز ٢٠٢٦

بدأ اليوم بكلمات عماد: «اليوم يوم أسود». قال إن أمامنا الكثير من العمل. خرجنا أولاً إلى زاروبة في حي عويد. لم تكن المرة الأولى التي نذهب إليها، بل الثالثة. يبدو أن مشاكل المجاريير هناك لا تنتهي، وكأننا كلما أصلحنا شيئاً عاد ليحتاج إلى إصلاح من جديد.

بعدها ركب عماد دراجة نارية مع محمد وتوجها إلى حي الطوارئ. استغرقت المهمة وقتاً طويلاً على غير العادة. بعد فترة عاد محمد إلى المكتب ليأخذ المزيد من الأسياخ، فعرفت أن عماد ما زال عالقاً في المهمة، وأنها أصعب مما توقع. أما أنا، فبقيت في المكتب حتى نهاية الدوام.

بدأ اليوم وكأنه سيكون مزدحمًا، لكنه انتهى بالنسبة إليّ بساعات من الانتظار. ظلّت عبارة عماد: «اليوم يوم أسود» عالقة في رأسي. لم أحب التعبير، ليس فقط لأن اليوم لم يكن أسود بالنسبة إليّ، بل لأنني صرت أكثر حساسية للكلمات التي تُستخدم لوصف السوء حين تتحول أحياناً إلى استعارات تحمل معها معاني أخرى، منها ما هو عنصري.

لكنني، في النهاية، كنت أنقل ما قيل كما قيل. كان اليوم أسود بالنسبة إلى عماد، أما أنا فكنت أقضي ساعاتي في المكتب أنتظر. وربما لهذا بدا لي أن اليوم نفسه يمكن أن يكون ثقيلاً على شخص، وعادياً تماماً على شخص آخر.

اليوم العاشر ١١ تموز ٢٠٢٦

بدأ اليوم بأحاديث لم تكن عن العمل نفسه، بل عن المشروع. بعد الجولة التي قامت بها مديرة المشروع في الصندوق الألماني للتنمية قبل أيام، اكتشفت أن بعض العمال لم يكونوا الأشخاص الذين اختيرت أسماؤهم في القرعة. أحياناً كان الأب يرسل ابنه، وأحياناً الأخ يعمل بدل أخيه، وأحياناً يتفق أحدهم مع

شخص آخر ليعمل مكانه مقابل تقاسم الأجر. كانت قد حذرتنا من ذلك في المحاضرة الأولى، لكن الأمر كان يحدث رغم ذلك.

رفعت تقريرًا إلى الإدارة، وفي اليوم التالي أوقف سبعة عمال عن العمل. سمعت زملائي في المكتب يتحدثون عن توتر في بعض الأحياء، وعن تهديدات، وأن النفايات تراكمت في مناطق بسبب النقص المفاجئ في عدد العمال.

طلب مني نبيل أن أكنس زاروب السمك. عندما وصلت، وجدت أن العمل كثير، وظننت أنها ستكون مهمتي الوحيدة. لكن بعد قليل جاء طارق، بطلب من نبيل، وطلب مني أن أكنس أيضًا جزءًا من الشارع من السوق حتى محل حسن الشايب.

أنهيت الزاروب، ثم بدأت بالشارع. كان العمل أكثر مما توقعت، والناس واقفون ينظرون إليك وأنت تكنس، وكأنهم يراقبون كل حركة.

امتلأت الحاوية، وكان عليّ أن أجرها إلى المذيلة. في الطريق شعرت بضيق في التنفس، يشبه ما حدث معي في بداية الأسبوع. وبعد أن انتهيت، عدت بالحاوية إلى المكتب، لكنني وجدته مغلقًا. اتصلت بنبيل، فقال لي: «فيك تخبيها عندك بالبيت؟» قلت له: «لا.» فقال: «خدها عبيت فادي، وأنا بحكي معه.» وهكذا، بعدما ظننت أن يوم العمل انتهى، اضطررت إلى جرّ الحاوية مرة أخرى حتى بيت فادي. عندما وصلت إلى البيت، كان التعب هذه المرة مختلفًا. لم يكن مجرد تعب عضلات، بل شعور بأن اليوم استهلك كل ما لدي.

— • —

اليوم الحادي عشر

١٣ تموز ٢٠٢٦

استيقظت هذا الصباح وأنا ما زلت أفكر في اليوم السابق. كنت مقتنعًا أن يوم الاثنين سيكون من أصعب أيام المشروع، حتى إنني فكرت جدّيًا في عدم الذهاب إلى العمل. في النهاية ذهبت.

خرجت مع عماد في سبع مهمات خلال النهار. كان يومًا طويلًا، لكنه لم يكن اليوم الشاق الذي رسمته في خيالي. صحيح أن عدد المهمات كان كبيرًا، لكن

تعبها لا يقارن بأيام الكنس وجَرّ الحاويات. انتهى اليوم من دون أن يتحقق الخوف الذي رافقني منذ يوم السبت.

أدركت أنني لا أستطيع توقع شكل يومي في هذا العمل. أحياناً أخاف من يوم ثم يمر بهدوء، وأحياناً يبدو يوماً عادياً ثم ينتهي بأكثر مما توقعت. لذلك شعرت أن قرارى بالنزول إلى العمل كان القرار الصحيح.

أما أزمة العمال الذين أوقفوا عن العمل فما زالت مستمرة. سمعت أن عمال النظافة مُنعوا من جمع النفايات في بعض الأحياء، ومنها حي حطين، فبدأت الزبالة تتراكم. وفي الوقت نفسه، كان هناك اجتماع في بيروت لمحاولة إيجاد حل للأزمة.

— • —

اليوم الثاني عشر

١٤ تموز ٢٠٢٦

في الصباح أخبرني حسن الشامي أن نبيل طلب منه أن أذهب معه لكنس أحد الشوارع. لكن قبل ذلك طلب منا عماد أن نساعد في تسليك مجرور. ذهبنا وأنجزنا المهمة، ثم عدنا إلى المكتب.

بعدها خرجت مع حسن إلى الشارع المطلوب. كان مليئاً بالزبالة، وفي بدايته كانت هناك مزبلة تراكمت فيها النفايات، على الأرجح بسبب أزمة العمال التي ما زلت لا أعرف إن كانت قد انتهت أم لا.

توليت الكنس، بينما كان حسن يجمع الزبالة ويضعها في الحاوية. بصراحة، ارتحت لأن مهمتي اقتصرت على الكنس، ولم أكن مضطراً إلى الانحناء المتكرر أو جَرّ الحاوية كما في الأيام السابقة.

عندما عدت إلى البيت، كان شعوري عادياً. حتى إنني ترددت إن كنت سأكتب يومية لهذا اليوم أم لا، لأنه لم يحدث شيء استثنائي.

لكنني فكرت في أمر آخر: مهما كتب الإنسان عن هذا العمل، ومهما حاول أن يصفه، تبقى هناك أشياء لا تستطيع الكلمات نقلها. وعلى رأسها الروائح.

— • —

اليوم الثالث عشر

١٥ تموز ٢٠٢٦

في الصباح التقيت بأبي علي، وهو أحد أفراد فريق التعزيل. أخبرني أن مهمتهم تغيرت أمس بسبب النقص في عدد جامعي الزبالة، بعد مشكلة العمال السبعة التي ما زالت من دون حل. قال إن اليوم السابق كان شاقاً جداً، حتى إنه جمع نحو عشر عربات من الزبالة، بينما جمع زميله وسيم عشر عربات أخرى.

بعد قليل دخل القرموطي إلى المكتب وحاول إقناع فادي بأن يرسلني مع فريق جمع الزبالة، لكن فادي رد عليه بحزم بأن عملي هو في الصيانة وتسليك المجاري. لم أفهم ما شأن هذا الشخص بأن يقرر أين أعمل وماذا أفعل.

أخبرنا عماد أن أمامنا ثلاث مهمات. وقبل أن ننطلق، طلب مني طارق أنا وحسن أن نأخذ عربة جمع الزبالة ونتوجه إلى طلعة جبل الحليب. سألت حسن إن كنا سنسعد الطلعة كلها، فقال: «لا، أولها فقط.» وصلنا إلى المكان، وجمعنا الزبالة حتى امتلأت العربة.

قال طارق إن أذهب لأفرغ العربة، بينما يعود حسن إلى المكتب. عندما انتهينا، طلبت من حسن أن يرافقني إلى المزبالة. وافق، وأفرغنا العربة معاً.

في طريق العودة، توقف حسن ليلتقط أنفاسه. هو يعاني من انسداد في الرئتين، إضافة إلى مشاكل في الضغط والقلب. عندها اكتشفت أنني أنا أيضاً كنت بحاجة إلى أن أتوقف قليلاً لأستعيد أنفاسي.

عدنا إلى المكتب، ثم خرجنا مع عماد إلى حي الذيب. كان الريغار داخل زاروب ضيق، ما صعب العمل كثيراً على عماد، حتى إنه أخبرنا أنه تعرّض لصدمة كهربائية أثناء العمل.

بعد ذلك توجهنا إلى حي حطين وأنجزنا بقية المهمات. سألت عماد وحسن إن كان هذا هو حي السينما، فأجاباني: «نعم.» عرفت المكان من آثار المعارك التي شهدتها المخيم قبل ثلاث سنوات، وهي معارك يبدو أنها لا تلبث أن تتكرر.

— • —

اليوم الرابع عشر ١٦ تموز ٢٠٢٦

كان هذا من أكثر الأيام هدوءًا منذ بداية المشروع. لم تكن هناك مهمات تسليم أو أعمال شاقة.

بدأت اليوم برش مادة الكلس على عربة في حي الرأس الأحمر، ثم أوصلت بعض المعدات والكلس إلى شابين كانا يعملان في مكان آخر.

لاحقًا، طلب مني طارق أن أدلّ أحد العمال على جزء من الشارع ليقوم بكنسه. استغربت الطلب، لأنني ما زلت أشعر أنني لا أعرف جغرافية المخيم جيدًا. قبل أسبوعين فقط كنت أنا أسأل عن أسماء الأحياء والزوارب، أما اليوم فقد طلب مني أن أرشد شخصًا آخر.

— • —

اليوم الخامس عشر ١٧ تموز ٢٠٢٦

خرجت اليوم مع حسن الشامي إلى طلعة جبل الحليب لتنظيف بورة. قبل أن ننتقل، طلبوا منا أن نأخذ عربة كبيرة لأن الحاوية الصغيرة لن تكفي.

عندما وصلنا إلى البورة، كنا قد انقطعت انفاسنا من التعب. بدأنا العمل، ولم تمضِ فترة طويلة حتى امتلأت العربة. أخذناها إلى المزبلة، أفرغناها، ثم عدنا لنكمل ما تبقى من العمل.

بعد أن انتهينا، عدنا إلى الزاوية التي كنا قد نظفناها أول أمس. لكن ما إن وصلنا حتى وجدناها مليئة بالزباله من جديد. خلال يومين فقط، عاد الناس وألقوا النفايات في المكان نفسه، وكأن شيئًا لم يكن.

— • —

اليوم السادس عشر

١٨ تموز ٢٠٢٦

طلب مني أحمد أبو النمر أن أرافقه إلى كنس زاروبة النبعة، بناءً على طلب نبيل. كانت الزاروبة طويلة جدًا. بدأ أحمد بالكنس، بينما كنت أجمع الزباله بقطعتي كرتون وأرميها في الحاوية.

مرّ بنا نبيل، وتحدث معنا، ثم قال: «علاء ببذل أقصى جهد بالشغل ويبشتغل بضمير، وهيدا بس المطلوب.» كانت هذه أول مرة أسمع منه كلامًا كهذا منذ بدأت العمل.

أكملنا العمل، ثم حضر الفورمان. كان منزله قريبًا، فأحضر مجرودًا حديدًا من البيت، مما سهّل عليّ المهمة قليلًا. بعد ذلك غادر أحمد، وبقيت أعمل مع الفورمان، الذي كان يوجه لي ملاحظة مع كل خطوة تقريبًا: أين أضع الحاوية، ماذا أكنس، وكيف أكنس. شعرت أن معظم هذه الملاحظات لم تكن ضرورية.

عندما انتهيت من كنس الزاروبة، بقي عليّ أن أجر الحاوية إلى المزبلة. كنت أشعر بعبطش شديد. ولأول مرة منذ بدأت العمل، لم أشتري قارورة ماء في الصباح. اشتريت واحدة في الطريق، وشربت حتى ارتويت.

بعد أن أفرغت الحاوية في المزبلة، اضطررت إلى العودة سيرًا حتى نهاية الزاروبة. كانت المسافة طويلة، وفيها طلوع. وما إن وصلت إلى نهايتها حتى كنت بالكاد أستطيع التقاط أنفاسي.

— • —

اليوم السابع عشر

٢٠ تموز ٢٠٢٦

لم أكن متأكدًا أنني سأستطيع الذهاب إلى العمل اليوم. في الليلة السابقة بقيت مستيقظًا حتى الثانية فجراً أشاهد نهائي كأس العالم، منتظرًا أن ترفع إسبانيا الكأس، وهذا ما حدث.

ورغم ذلك، استطعت أن أستيقظ عند الخامسة والنصف صباحًا كعادتي. كان الجميع يتحدث عن فوز إسبانيا، وكانت أجواء الفرح واضحة منذ بداية الدوام.

خرجت مع عماد في ثلاث مهمات. كانت المهمتان الأوليان سهلتين، لكن المهمة الأخيرة كانت صعبة جدًا. تعب عماد كثيرًا، وحاولت أن أساعده قدر ما استطعت. قلت له: «هاي أشغال شاقة» فأجابني: «شو مفكر؟»

كانت المسافة بين نقاط العمل طويلة، واضطررنا إلى التنقل كثيرًا حتى أنهينا المهمات.

عندما عدت إلى المكتب، شعرت بتعب أكبر من ذلك الذي اعتدت أن أشعر به في الأيام الأخرى التي عملت فيها مع عماد، وربما كان السبب أنني لم أنم ساعات كافية في الليلة السابقة.

— • —

اليوم الثامن عشر

٢١ تموز ٢٠٢٦

في الصباح جاء أحمد أبو النمر وقال إن لديه نقصًا في العمال، وكان يريد أن آتي معه إلى جمع الزبالة. اعتذرت منه، لأن عملي هو في الصيانة.

خرجت مع فادي. كانت مهمتنا إصلاح قسطل بلاستيكي نازل من أحد البيوت داخل زاروب ضيق. أخبرني فادي أن القسطل انكسر أكثر من مرة بسبب مرور عربات جمع الزبالة.

بعد ذلك انتقلنا إلى قسطل آخر، كان قديمًا جدًا ومهترئًا ومدفونًا تحت الأرض. حاول فادي الوصول إليه باستخدام المطرقة والإزميل، لكن الباطون كان قاسيًا، ولم يكن العمل سهلًا. بعد عدة محاولات، طلب من المكتب إحضار كومبرسور.

بعد وصول الكومبرسور، قصّ فادي جزءًا من القسطل وركّب سدّادات، لأن هذا الخط أصبح ملغى ولم يعد مستخدمًا. عندما انتهينا، حملت العدة على العربة، وكان الكومبرسور وحده ثقيلًا. في طريق العودة إلى المكتب، قال لي فادي: «وقف... ارتاح.» توقفت قليلًا، ثم أكملنا الطريق حتى عدنا إلى المكتب.

في بداية اليوم كنت أشرح لماذا لا أريد جمع الزبالة: عملي هو في الصيانة. وفي نهايته كنت أجرّ عربة محمّلة بالعدة والكومبرسور، وأحتاج إلى من يقول لي: «وقف... ارتاح». ربما لم تكن الحدود بين المهام واضحة كما كنت أظن، لكنني بدأت أفهم أن لكل مهمة ثمنها، وأن حتى العمل الذي أشعر أنه أقرب إليّ يمكن أن يجعلني أتوقف لألتقط أنفاسي.

القسم الثالث

خريطة تُقرأ بالقدمين
من اليوم ١٩ إلى اليوم ٢٦



اليوم التاسع عشر

٢٢ تموز ٢٠٢٦

عملت اليوم مع فادي في حي الطوارئ، وكان معنا أحمد أبو النمر. بدأنا النهار بجرّ العربّة الكبيرة ذات الدولابين من المكتب حتى آخر حي الطوارئ. كانت المسافة طويلة، ووصلنا وقد استهلكنا جزءًا من طاقتنا قبل أن يبدأ العمل.

كانت المهمة إصلاح قسطل تحت الأرض يسرّب المياه. في البداية ظلّ فادي أن المشكلة بسيطة، لكن بعد أن بدأ الحفر، اكتشف أن العطل أكبر بكثير مما توقع. تحولت حفرة صغيرة إلى حفرة يزيد عرضها على مترين.

كانت المياه تتدفق باستمرار من القسطل المكسور، فوجدنا إسفنجة، وقصّ أحمد قنينة مياه بلاستيكية، وبدأنا نفرغ المياه من الحفرة. توليتُ تفريغ المياه بالقنينة مرة بعد أخرى حتى يتمكن فادي من متابعة العمل.

عندما اتضح حجم العطل، طلب منا فادي، أنا وأحمد، أن نعود إلى المكتب لإحضار الرمل والبودرة والقطع اللازمة لإصلاح القسطل. وفي الطريق تناوبنا على جرّ العربّة.

وأثناء سيرنا، مررت بجانب امرأة مسنة. كان التعب واضحًا على وجهي، فنظرت إليّ وقالت: «لأزم المظلومين يتحدوا مع بعض... ليش ما بيتحدوا؟» أعادتني كلماتها إلى رواية «أم سعد» لغسان كنفاني، حيث يطرح السؤال نفسه بطريقة مختلفة.

وصلنا إلى المكتب، حملنا المواد المطلوبة، ثم عدنا إلى مكان العمل. في منتصف الطريق شعرت بتعب شديد، فتوقفت لأرتاح، بينما أكمل أحمد جرّ العربّة حتى موقع الإصلاح.

كان إصلاح القسطل شاقًا، خصوصًا أننا كنا نضطر إلى تفريغ المياه من الحفرة باستخدام قنينة مقصوصة وإسفنجة حتى نستطيع متابعة العمل.

بعد أن انتهينا، عدنا باتجاه المكتب، نتناوب مرة أخرى على جرّ العربة. وقبل أن نصل، قال لي فادي إنه يمكنني العودة مباشرة إلى البيت، ولا داعي لأن أكمل الطريق إلى المكتب.

عدت إلى البيت، لكن السؤال الذي طرحته تلك المرأة بقي يرافقني طوال الطريق:

«ليش المظلومين ما بيتحدوا مع بعض؟»

— • —

اليوم العشرون

٢٣ تموز ٢٠٢٦

عملت اليوم مع فادي وأحمد أبو النمر. عدنا إلى الأماكن التي عملنا فيها خلال اليومين السابقين. أخذنا معنا الرمل والتراب والحصى، وخلطناها بالإسمنت، ثم ردمنا الحفر التي خلفتها أعمال الصيانة وأعدناها كما كانت. كان العمل أخف من الأيام السابقة، ولم يتطلب جهداً كبيراً.

عندما انتهينا، قال لي إن بإمكانني العودة مباشرة إلى البيت.

في الطريق صادفت عماد يعمل وحده. سألته إن كان بحاجة إلى مساعدة، فأجاب: «إيه.» أحضر سطلاً بلاستيكيّاً وبدأ يملؤه بالنفايات التي أخرجها من الريغار. حملت السطل إلى المزبلة وأفرغته، ثم عدت إليه مرة ثانية وكررت الأمر. كان بإمكانني أن أعود إلى البيت، فقد انتهى يومي. لكنني عندما رأيت عماد يعمل وحده، بدا لي أن انتهاء الدوام لا يعني دائماً انتهاء العمل. حملت السطل مرة ثانية، ثم ثالثة، قبل أن أتركه وأكمل طريقي. ربما كانت تلك المرة الأولى التي أساعد فيها من دون أن تكون المساعدة جزءاً من المهمة الموكلة إليّ.

— • —

اليوم الحادي والعشرون

٢٤ تموز ٢٠٢٦

بدأ اليوم بطريقة مختلفة. أخبرني فادي منذ الصباح أنه لا توجد أعمال صيانة، فعرفت أن اليوم لن يشبه الأيام السابقة.

بعد قليل، جاء أحمد أبو النمر وطلب رقم هاتفي. كان قد علم أنني أكتب يوميات المشروع، وطلب مني أن أرسل له اليوم التاسع عشر، اليوم الذي كتبت فيه عن المرأة التي قالت إن على المظلومين أن يتحدثوا.

لاحقًا، خرجت مع عماد، أنا وأحمد، في مهمتين قصيرتين، ثم عدنا إلى المكتب. هناك طلب مني نبيل أن آخذ عربة النفايات وأرافق فورمان المنطقة الوسطى. كانت هذه المهمة هي التي أخشاها منذ أول يوم عمل. كنت أظن أنها ستكون فوق طاقتي.

بدأت بجمع بعض أكياس النفايات من الأزقة، ثم وصلنا إلى مركز الصمود، حيث كانت تنتظرنا كمية كبيرة. نظر الفورمان إليها وقال إننا قد نحتاج إلى نقلتين لإنهائها. لكنني قررت أن أحاول إنهاء المهمة في نقلة واحدة. رتبت الحمولة بعناية، وضغطت الأكياس قدر الإمكان، وفي النهاية تمكنت من أخذها كلها في نقلة واحدة.

كان المشوار طويلًا وشاقًا. كنت أدفع العربة وأشعر بثقلها في كل خطوة. وعندما وصلت إلى نقطة التفريغ، لم أشعر بالراحة لأن المهمة انتهت فقط، بل لأن المهمة التي ظلت تقلقني منذ بداية المشروع لم تكن بالصعوبة التي تخيلتها.

أحيانًا يكون الخوف أثقل من العربة نفسها.

— • —

اليوم الثاني والعشرون

٢٥ تموز ٢٠٢٦

كان اليوم عاديًا جدًا. خرجت مع عماد وأحمد أبو النمر في مهمة تسليك، ثم عدنا إلى المكتب.

بعدها طلب مني عماد أن أنزل إلى حي صفورية، وأن آخذ معي حاوية وأبحث عن القرموطي، فورمان المنطقة. قال إن هناك كيسيّن فقط من الزبالة لم يُنقلا. عندما وصلت، استوقفني صاحب أحد المحال وقال إن الحاوية أمام دكانه لم تُفرغ. أفرغتها أولاً، ثم جاء أحد العمال من فريق القرموطي ودلّني على مكان الأكياس. اضطررت إلى الذهاب إلى المزبلة والعودة مرتين. لم تكن المسافة بعيدة، لكن في المرة الثانية سألني أحد العمال من الفريق: «من وين عم تجيب؟» أجبت: «من حي صفورية». فقال: «ليش كاسرينا؟»

في البداية لم أفهم ما يقصده، ثم أدركت أنه كان يتحدث عن التقصير في العمل. وفي الحقيقة، كان هناك فعلاً تقصير في المكان نفسه، سواء أمس أو اليوم. لكنني لم أفهم لماذا شعرت وكأنني أنا من يتحمل مسؤولية تقصير لم يكن لي أي علاقة به. ربما لأنني كنت الوحيد الذي وصل في تلك اللحظة ليجمع ما تركه الآخرون. أحياناً يكفي أن تأتي متأخراً إلى مكان فيه فوضى، حتى يبدو كأن الفوضى أصبحت مسؤوليتك.

عدت بالحاوية إلى المكتب، وانتهى يوم آخر من العمل. يوم لم يحدث فيه شيء استثنائي تقريباً، باستثناء ذلك السؤال الصغير الذي بقي معي أكثر مما توقعت: لماذا يشعر العامل أحياناً أنه مطالب بتبرير أخطاء لم يرتكبها؟



اليوم الثالث والعشرون ٢٧ تموز ٢٠٢٦

كان اليوم هادئاً. خرج عماد في الصباح لإنجاز مهمتي تسليك، بينما بقيت أنا في المكتب أنتظر. لم يكن لدي ما أفعله سوى الانتظار حتى يعود.

بعد ذلك وصلت مهمة ثالثة، فخرجنا أنا وفادي وعماد لإنجازها. كانت مهمة تسليك عادية، انتهت من دون أن تحمل شيئاً مختلفاً عن الأيام السابقة. عندما عدت إلى البيت، أدركت أنني حتى لم أتعرق اليوم. بعد كل الأيام التي ارتبط فيها العمل بالحر والتعب، بدا هذا اليوم استثناءً هادئاً.

ربما ليست كل الأيام بحاجة إلى حادثة أو مشقة كي تستحق أن تُكتب. أحيانًا يكون الشيء الوحيد الذي يستحق التسجيل هو أن يومًا مرَّ بهدوء، وأنني عدت إلى البيت وأنا لا أشعر بثقل اليوم على جسدي.

— • —

اليوم الرابع والعشرون

٢٨ تموز ٢٠٢٦

عملت اليوم مع عماد وأحمد أبو النمر. في بداية الدوام اكتشفت أن عماد قرأ جزءًا من يومياتي عن طريق أحمد، وشاهد أيضًا فيلمي «رحلة كنباي» و«رسالة إلى أحمد». لم أتوقع ذلك، لكنه جعل بداية اليوم مختلفة.

انطلقنا إلى حي الصفصاف. فتحنا عدة ريغارات، ثم وصلنا إلى ريغار رئيسي في الشارع. حاول عماد فتح القسطل المسدود باستخدام الأسلاك، لكن المهمة كانت أصعب مما توقع.

بعد قليل وصل حسن أبو العسل، وهو يعمل بشكل دائم في فريق التسليك، لكنه في إجازة خلال شهر تموز. تشاور مع عماد، واتفقا على أن الحل يحتاج إلى قسطل حديدي بطول ثلاثة أمتار.

ذهب أحمد ليجلب قطعة حديد من بورة شربل للخردة، لكنه لم يبتعد كثيرًا. عاد بعد لحظات بعدما وجد قضيبًا حديديًا ملقى على جانب الطريق يفى بالغرض. قلت له ضاحكًا: "إنت يا أحمد بتاع كلوا."

استغرق العمل بعض الوقت حتى انتهينا، ثم انطلقنا إلى المهمة الثانية. في الطريق عرفنا أننا متجهون إلى زاروبة عويد، فقلت: «نص أشغالنا بزاروبة عويد، ونصها بعين الحلوة.»

بعدها نزلنا إلى حي الجميزة وأنجزنا المهمة الأخيرة. كانت مهمات اليوم، في مجملها، صعبة ومجهد.

وخلال العمل، كان عماد وأحمد يقترحان علي أفكارًا يمكن أن أكتب عنها في اليوميات. قال أحمد: «المهم بالشغل المحبة والاحترام.» وأصرَّ على أن أكتب هذه الفكرة.

اليوم الخامس والعشرون

٢٩ تموز ٢٠٢٦

بدأت اليوم بمهمة مع أحمد أبو النمر. خرجنا إلى حي الجميزة لرش المبيدات. حمل أحمد المرشّة ذهابًا وإيابًا، وهو الذي تولى رش الزاروب، أما أنا فكنت مرافقًا له أكثر من كوني مشاركًا في العمل.

بعد أن عدنا إلى المكتب، طلب مني نبيل أن أذهب إلى زاروبة السمك لأكنسها. أراد أحمد أن يدلني على المكان، فقلت له إنني أعرفها، فقد كنت قد كنستها من قبل.

ذهبت وبدأت العمل. مرّ نبيل أثناء الكنس، فأتنى على الشغل، وأعطاني بعض الملاحظات كعادته.

هذه المرة عملت بهدوء وعلى مهل، بخلاف المرات السابقة التي كنت أكنس فيها بسرعة. استغرق العمل وقتًا أطول، لكنه تطلّب جهدًا أقل. اكتشفت أن التمهّل يجعل المهمة أسهل، حتى لو انتهت بعد وقت أطول. في الأيام الأولى كنت أتعامل مع العمل كأن عليّ أن أسبقه قبل أن يسبقني. الآن بدأت أفهم أن بعض المهام لا تحتاج إلى السرعة، بل إلى أن تعرف كيف توزّع طاقتك. أن تنهي العمل متأخرًا قليلًا، وأنت محتفظ بما يكفي من طاقتك، أفضل من أن تنهيه بسرعة وتكتشف أن اليوم لم ينتهِ بعد.

اليوم السادس والعشرون

٣٠ تموز ٢٠٢٦

اليوم أنهيت، على ما يبدو، نصف مدة العقد. ستة وعشرون يوم عمل من أصل اثنين وخمسين. كان عماد قد أخبرني أمس أنني سأعمل مع لؤي ميعاري (أبو علاء) في جمع النفايات الطبية.

التقيت به أمام عيادة الأونروا الثانية، بالقرب من جبل الحليب. جمعنا النفايات الطبية ووضعتها في السيارة المخصصة لنقلها، ثم توجهنا إلى مستوصف النداء الإنساني. كانت الكمية هناك أكبر، لأن المستوصف يجري عمليات جراحية.

بعدها ذهبنا إلى عيادة عين الحلوة الأولى، ولم نجد فيها نفايات طبية. ثم خرجنا من المخيم باتجاه صيدا إلى عيادة الأونروا، وجمعنا النفايات منها أيضًا. بعد ذلك واصلنا الطريق إلى عيادة الإقليم في وادي الزينة، وكانت المهمة نفسها. كانت محطتنا الأخيرة مركز التأهيل المهني في سبلين، حيث أفرغنا الحمولة. كانت تلك المرة الأولى التي أدخل فيها المركز، رغم أنني سمعت عنه كثيرًا. لفت انتباهي اتساع المكان؛ ملاعب وساحات ومدارس ومركز مهني، بدا مختلفًا تمامًا عن الصورة التي كنت أرسمها له في ذهني.

في طريق العودة، أخبرت لؤي أنني، خلال الفترة الماضية، عملت في معظم الأعمال التي يقوم بها مكتب البيئة. ابتسم وقال:

«بعد في تروح معي على آبار المياه لنحط كلور... ساعتها بتكون ختمت المصلحة.»

كنت أظن أن بلوغ نصف العقد يعني أنني بدأت أرى نهايته، لكن كلام لؤي ذكّرني بشيء آخر: في هذا العمل، كلما ظننت أنك عرفت كل شيء، تظهر مهمة جديدة. ستة وعشرون يومًا مضت، وستة وعشرون بقيت. نصف الطريق خلفي، والنصف الآخر لم يبدأ بعد.

القسم الرابع

نصف الطريق

من اليوم ٢٧ إلى اليوم ٣٤



اليوم السابع والعشرون

٣١ تموز ٢٠٢٦

كان اليوم من أكثر الأيام تعبًا منذ بداية المشروع.

بسبب غياب أحد عمال الكنس، طُلب مني أن أعمل مع أبو نوح. أخبروني منذ البداية أن أبا نوح مريض. وفي الطريق قال لي إنه يشعر بألم في رقبته، وطلب أن يتولى هو الكنس، بينما أتولى أنا جمع النفايات ووضعها في الحاوية. كنت أعرف أن هذا هو الجزء الأكثر إرهاقًا، لأنه يتطلب الانحناء مئات المرات لالتقاط النفايات ثم رفعها إلى الحاوية.

أنجزنا القسم الأول من السوق حتى حسن الشايب، ثم انتقلنا إلى منطقة أخرى تمتد من الشهابي حتى دحابري. هناك قال لي أبو نوح إنه أنهى عمله، وإن عليّ أن أكمل المهمة وحدي.

شعرت بالغضب، لكن لم يكن أمامي خيار. كانت الحاوية قد امتلأت، فذهبت إلى المزبلة، أفرغتها، ثم عدت إلى نقطة البداية. في طريقي فكرت أن أعود إلى المكتب وأخبرهم أن المهمة أكبر من أن تُنجز في الوقت المتبقي من الدوام. كنت قد مررت بالمكان كله، وأدركت أنه يحتاج إلى يوم كامل من العمل، بينما كان الدوام يقترب من نهايته.

كنت ألهث، ولاحظت أن نبضات قلبي وصلت إلى ١٣٦. عندها شعرت بالقلق، لكنني حاولت أن أنجز أكبر قدر ممكن.

للمرة الأولى منذ بدأت العمل، لم أكن راضيًا عن النتيجة. ليس لأنني قصرت، بل لأن المهمة نفسها كانت أكبر من أن ينهيها شخص واحد.

بعد أن أفرغت الحاوية للمرة الأخيرة، أسرعت عائدًا إلى المكتب حتى لا أضطر إلى جَرْها إلى منزل فادي كما حدث في مرة سابقة. لكنني وصلت متأخرًا، وكان المكتب قد أُغلق.

اضطرت إلى الاتصال بنبيل، رغم أنه كان في إجازة، فطلب مني أن آخذ الحاوية إلى منزل فادي.

في طريق العودة، كنت أفكر في كل ما حدث خلال هذا اليوم. منذ الصباح وأنا أتنقل بين الأسواق والأحياء، أنحني لالتقاط النفايات، وأجرّ الحاوية، ثم أعود لأبدأ من جديد. انتهى الدوام، لكن العمل لم ينتهِ إلا بعد أن أوصلت الحاوية إلى منزل فادي.

عندما وصلت إلى البيت، لم أشعر إلا بشيء واحد: أن هذا اليوم استنزف من جسدي أكثر بكثير مما تستطيع أجرة يوم عمل أن تردّه.

— • —

اليوم الثامن والعشرون

١ آب ٢٠٢٦

نزلت إلى العمل اليوم وأنا ما زلت أشعر بتعب اليوم السابق. كنت قد أرسلت لفادي رسالة أخبره فيها كم كنت مرهقًا.

في الصباح أخبرني أنه تحدث مع نبيل، وأنهما سيحاولان، قدر الإمكان، ألا يرسلاني إلى مهمات غير الصيانة وتسليك المجاري. شعرت أن أحدًا أخذ تعبي على محمل الجد.

قال لي إننا سنعمل معًا، وكانت مهمتنا صب حفرتين بالباطون. حملنا العربة الكبيرة بالرمل والحصى والتراب. كانت ثقيلة جدًّا، وكان فادي يجرها معظم الطريق. أما الجزء الذي جرّته أنا فكان كافيًّا لأشعر بصعوبة المهمة، خصوصًا مع المطبات الكثيرة في زوارب وشوارع المخيم.

عندما وصلنا، بدأ فادي بتكسير الباطون، ثم طلب مني أن أحضر معولًا وسطّلاً من المكتب. حاولت أن أصل بسرعة، لكنني شعرت بالتعب، فواصلت طريقي على مهل.

عندما عدت، كان أحمد أبو النمر وحسن أبو العسل قد وصلا. حسن عاد اليوم من إجازته، بينما بدأت إجازة عماد. تعاونا جميعًا في تحضير الباطون وصب الحفرتين حتى انتهينا.

بعد انتهاء العمل، قال لي فادي إن بإمكانني العودة مباشرة إلى البيت، وأنه سيتولى هو إعادة العربة إلى المكتب.

لم يكن اليوم سهلاً، لكنه كان أخف من اليوم الذي سبقه. وربما كان أكثر ما بقي في ذهني أن فادي لم يتجاهل تعبتي، بل حاول أن يخفف عني ما استطاع.

في اليوم السابق كنت قد شعرت أن العمل يمكن أن يأخذ من الجسد أكثر مما يستطيع أن يعطي. أما اليوم، فاكتشفت أن العمل نفسه يمكن أن يصبح أخف قليلاً حين يعرف أحد كيف يحمل عنك جزءاً من ثقله.

— • —

اليوم التاسع والعشرون

٣ آب ٢٠٢٦

بدأ اليوم عندما أخبرنا حسن أبو العسل، أنا وأحمد أبو النمر، أن لدينا مهمتين في مجال تسليك الريغارات. طلب مني أن آخذ العربة وأتوجه إلى حي الصفصاف، وحدد لي النقطة التي يجب أن أذهب إليها، بينما ذهب هو وأحمد على الدراجة النارية.

أنجز حسن وأحمد المهمة الأولى، ثم التقينا في حي الصفصاف. كانت المهمة هناك تتطلب تعزيل الريغارات، وبعد الانتهاء امتلأت العربة بالخرى. طلبوا مني أن أنقلها وأرميها في المزبلة.

سألني أحمد إذا كنت أحتاج أن يرافقني، فشكرته وقلت له إنني سأذهب وحدي. أفرغت العربة في المزبلة، وكانت هذه أصعب خطوة في المهمة. كانت الرائحة قوية جداً بسبب تراكم النفايات، خصوصاً أن يوم أمس كان عطلة الأحد ولم يتم ترحيل النفايات. إضافة إلى ذلك، كان هناك الكثير من البرغش والذباب، مما جعل المكان أكثر صعوبة. عدت بعدها إلى الشباب، ورجعنا جميعاً إلى المكتب.

بعد ذلك جاءت شكوى عن ريغار مسكّر، فذهب حسن وأحمد لمعالجته. ثم ذهبت أنا وأحمد لكنس زاروبة قريبة من المكتب. بعدها جاء القرموطي وسأل فادي إذا كان بإمكانني أن أذهب معه. كانت هناك زاروبة صغيرة تحتاج إلى كنس، فذهبنا وأنجزنا المهمة، ثم عدنا إلى المكتب. بعد انتهاء الدوام، توجهت إلى البيت.

كان اليوم مليئًا بالمهام المختلفة: تسليك، ونقل الخرى، وكنس. لم تكن المشكلة في مهمة واحدة، بل في الانتقال من واحدة إلى أخرى، وكأن كل مهمة تضيف طبقة جديدة من التعب فوق التي سبقتها.

وفي نهاية اليوم، لم أفكر في عدد المهام التي أنجزتها، بل في الطريق الذي قطعته بالعربة وهي محمّلة بالخرى، وفي تلك اللحظة التي وقفت فيها أمام المزبلة وسط الرائحة والذباب.

ربما بعض المهام تنتهي عندما تفرغ العربة.

لكن بعضها يبقى معك حتى تصل إلى البيت.

— • —

اليوم الثلاثون

٤ آب ٢٠٢٦

لم يكن هناك الكثير من العمل اليوم. كنا قد أبلغنا أمس بأن علينا ارتداء أحذية السلامة، لأن وفدًا سيزور المشروع وسيصوّرنّا أثناء العمل. اضطررت إلى ارتدائها منذ الصباح، رغم أنني لا أحبها، على أساس أن الزيارة ستتم. في النهاية، لم يأت أحد.

بدا ارتداء الحذاء وكأنه عقوبة على ذنب لم أقترفه.

كانت هناك عدة أعمال لتسليك الريغارات، فقرر حسن أبو العسل أن يتنقل بالدراجة النارية، وأخذ معه أحمد أبو النمر حتى يتمكنّا من إنجاز المهام بسرعة. بقيت معظم الوقت في المكتب، وانشغلت ببعض أعمال التنظيف البسيطة.

كان يومًا هادئًا مقارنة بالأيام السابقة. لم يحدث فيه شيء يُذكر، وربما لهذا السبب بقيت تفاصيله الصغيرة أوضح في ذهني.

فقد اكتشفت أن العمل لا يستهلك الجسد وحده. أحيانًا يستهلك الصبر أيضًا.

في بعض الأيام تتعب لأنك تفعل الكثير، وفي أيام أخرى تتعب لأنك تنتظر شيئًا لا يحدث.

واليوم، كان الحذاء ينتظر الوفد الذي لم يأت.

اليوم الحادي والثلاثون

٥ آب ٢٠٢٦

بدأ النهار بشيء من القلق، حين سألني أبو علي، الذي يتولى مهام نبيل خلال وجوده في مكتب صيدا، إن كنت أستطيع أن أعمل على شاحنة جمع النفايات بدل أحد العمال الغائبين. اعتذرت، لأنني لا أستطيع رفع الحاويات إلى الشاحنة.

بعدها خرجت مع أحمد أبو النمر في مهمتين لتسليك الريغارات، بينما أنجز أحمد مع حسن أبو العسل مهمة ثالثة. بقيت بعد ذلك في المكتب، إلى أن جاء القرموطي وطلب مني أن أرافقه لكنس المنطقة أمام جمعية نبع. أخذت الحاوية، وأنجزنا المهمة بسرعة.

في طريقي إلى المزبلة، صادفت الدامر، وهو يجمع النفايات. سألت العمال إن كان بإمكانني إفراغ الحاوية معهم، فوافقوا، مما وفّر عليّ عناء الوصول إلى المزبلة والعودة.

عندما رجعت إلى المكتب، ساعدت فادي ومحمد شريدة في تعبئة جالونات المازوت من خزان المولد. هناك أخبرني الشباب أن لبنان يمر بأزمة مازوت، وأن الشاحنات العاملة في المشروع تكاد تتوقف بسبب صعوبة تأمين الوقود.

كما علمت أن عمال معمل سينيق ما زالوا مضربين. هذا المعمل يستقبل نفايات مدينة صيدا ومحيطها، ومنها مخيم عين الحلوة، لذلك فإن أي توقف في عمله ينعكس مباشرة على تراكم النفايات، ويجعل عملنا أكثر صعوبة يوماً بعد يوم.

للمرة الأولى شعرت أن العربة التي أجّرها في أزقة المخيم ليست وحدها في هذا الطريق. وراءها شاحنات تحتاج إلى المازوت، ومعمل ينتظر عماله، ومدينة ترسل نفاياتها إلى مكان لا يستطيع استقبالها.

كنت أتعامل مع النفايات كشيء أجّره من زاوية إلى أخرى.

اليوم، بدا لي أن النفايات هي التي تقود الطريق، من الزاروبة إلى المزبلة، ومن المخيم إلى المدينة.

اليوم الثاني والثلاثون ٦ آب ٢٠٢٦

عملت اليوم مرة أخرى مع لؤي ميعاري (أبو علاء) في جمع النفايات الطبية. كان خط السير نفسه الذي سلكناه الأسبوع الماضي، من عيادات المخيم إلى صيدا، ثم وادي الزينة، وأخيرًا مركز التأهيل المهني في سبلين. لم يكن في المهمة شيء جديد. فقط أصبحت أعرف الطريق والمحطات، فبدأت الرحلة أخف. في طريق العودة، تذكرت ما قاله لي لؤي في المرة الماضية:

«بعد في تروح معي على آبار المياه لنحط كلور... ساعتها بتكون ختمت المصلحة.»

ابتسمت. يبدو أنني، بعد اثنين وثلاثين يومًا، ما زلت لم أختم المصلحة.

— • —

اليوم الثالث والثلاثون ٧ آب ٢٠٢٦

بدأ النهار عندما طلب مني أحمد أبو النمر أن أذهب مع عامل آخر اسمه أحمد، يعمل في جمع الزباله، إلى حي الرأس الأحمر لإحضار حاوية مكسورة. أخبرني أحمد أبو النمر أنها فارغة، وأن المطلوب فقط إعادتها إلى المكتب.

في الطريق، أخبرني أحمد الآخر أن الحاوية فيها بعض الأكياس. توقفت قليلًا وفكرت في العودة، لكنني أكملت الطريق.

عندما وصلت، اكتشفت أن الحاوية كانت ممتلئة حتى آخرها، وكانت دواليبها بالكاد ثابتة. بدأت أجزّها، وكانت ثقيلة جدًا. كنت أخاف أن تنفلت الدواليب أو تنقلب الحاوية، خصوصًا أنها مكسورة، وأن تنتشر الزباله في الطريق. توقفت أكثر من مرة لأرتاح، وفي النهاية وصلت إلى المزبلة.

كانت الرائحة كريهة جدًا. أفرغت الحاوية، ثم خرجت فوجدت مقعدًا في الشارع فجلست قليلًا لأستعيد أنفاسي.

تذكرت يوم السبت الماضي، عندما رأيت شابًا في حي الجميزة يجر حاوية من دون دوايب. تخيلت كم كانت مهمته صعبة، وكيف أنني لم أكن أستطيع أن أفهم حجم ذلك الجهد إلا بعدما جربت شيئًا قريبًا منه بنفسي.

عدت إلى المكتب وأنا أجزّ حاوية مكسورة وخارجة عن الخدمة. فكرت أن الأفضل ربما كان أن أتركها في المزبلة بدل أن أعيدها إلى المكتب.

بعدها خرجت مع حسن أبو العسل وأحمد أبو النمر إلى زاروبة عويد. وفي الطريق قال أحمد لحسن:

«علاء يقول نص الشغل بالمخيم ونصه الثاني بزاروبة عويد.»

قلت له: «غيرنا... ربع الشغل بالمخيم وثلاث أرباعه بزاروبة عويد.»

بعد عودتنا إلى المكتب، ذهبت مع القرموطي إلى حي الجميزة، حيث كنست زاويتين، ثم عدت إلى المكتب. في نهاية اليوم، فكرت في الحاوية التي جررتها منذ الصباح. كانت مكسورة، ثقيلة، ودوايبها بالكاد تحملها. لكنها أوصلتني إلى المزبلة. وربما لم تكن المشكلة يومًا في أن تكون الحاوية صالحة للعمل، بقدر ما كانت في أن تجد من يجزّها حتى النهاية.

— • —

اليوم الرابع والثلاثون

٨ آب ٢٠٢٦

ظهر لي صباحًا على فيسبوك بوست قديم كنت قد نشرته على سبيل المزاح، وأسأل فيه: «أي سنة بيخلص شهر آب؟». لم أكن أعرف يومها أن السؤال سيبدو لي، بعد فترة، أقل طرافة بكثير.

مرّ اليوم ثقيلًا. كان العامل المكلف بكس الجزء من الشارع الفوقاني الممتد من حسن الشايب إلى السوق، إضافة إلى جزء آخر من منطقة الشهابي حتى دحابري، غائبًا. وكان هذا العامل الثالث الذي يُكلف بهذه المهمة منذ بداية المشروع؛ فالاثنتان اللذان سبقاه طلبا تغيير مهمتهما والعمل في مكان آخر. وهكذا وجدت نفسي أنا وأحمد أبو النمر متورطين اليوم في كس المنطقة.

بدأنا بالقسم الممتد من حسن الشايب حتى السوق، ثم أبلغنا بأن علينا أيضًا كنس النزلة المقابلة لجامع الفاروق. بعدها انتقلنا إلى المنطقة الثالثة، من الشهابي حتى دحبري. كانت الأوساخ كثيرة، وكان واضحًا أن العمال الذين سبقونا لم ينظفوا المكان كما يجب خلال الأيام الماضية.

أنهينا المهمة وعدنا إلى المكتب. بعدها ذهب أحمد مع حسن أبو العسل لإنجاز مهمة التسليك، وأخبرني أنه بإمكانني المغادرة.

عدت أدراجي إلى البيت وأنا أتصيب عرقًا، كما يحدث في معظم الأيام، وأنا أفكر بالسؤال نفسه الذي ظهر أمامي صباحًا على فيسبوك:

«أي سنة بيخلص شهر آب؟»

القسم الخامس

ما وراء الحاوية
من اليوم ٣٥ إلى اليوم ٤٤



اليوم الخامس والثلاثون

١٠ آب ٢٠٢٦

بدأ اليوم بشيء من الضغط، حين حاول القرموطي أن يورطنا أنا وأحمد أبو النمر في التكنيس. يبدو أن موضوع التكنيس أصبح من المهام التي لا أحد يريد أن يتولاها بسهولة، وكلما غاب أحد العمال أو طلب تغيير مهمته، تبدأ عملية البحث عمّن يمكن أن يحل مكانه.

لكن حسن أبو العسل حسم الأمر هذه المرة. كان بحاجة إلى معاونين معه في التسليك، فوجدنا أنفسنا أنا وأحمد أبو النمر متجهين معه للعمل.

انطلقنا من المكتب، وبدأنا نتنقل بين مهام مختلفة في أنحاء متفرقة من المخيم. لم يكن هناك مكان واحد نعمل فيه طوال اليوم؛ كانت كل مهمة تقودنا إلى مكان آخر، وكأن خريطة المخيم نفسها أصبحت جزءاً من يوم العمل. نذهب إلى مكان، نجز ما علينا، ثم نتنقل إلى مكان آخر، من دون أن نعرف أحياناً أين ستكون المهمة التالية.

ومع مرور الأيام، بدأت أفهم أن العمل هنا لا يسير دائماً وفق خطة ثابتة. قد تخرج من المكتب وأنت تظن أنك ذاهب إلى مهمة معينة، ثم تجد نفسك في مكان آخر تقوم بعمل مختلف تماماً. عليك فقط أن تتأقلم، وأن تعرف كيف تمرّر اليوم بما يحمله من مفاجآت صغيرة.

اليوم السادس والثلاثون

١١ آب ٢٠٢٦

كان يفترض أن أذهب اليوم مع حسن أبو العسل وأحمد أبو النمر، لكن فادي طلب مني أن أذهب معه إلى طلعة جبل الحليب، إلى المكان نفسه الذي عملت فيه مرتين مع حسن الشامي.

جريت الحاوية، وكان فادي قد أحضر معه بعض الكلس بسبب وجود جرد ميت فيها. رش عليه بعض الكلس، ولحسن الحظ كان الجردون على قطعة كرتون، فحملتها ورميتها في الحاوية. كان هناك أيضًا بعض الأوساخ جمعناها، ثم عدنا.

كانت رائحة الجردون داخل الحاوية كريهة جدًا، ويبدو أنه كان قد مات منذ فترة، بقيت الرائحة عالقة في أنفي حتى بعد أن انتهينا من المهمة.

بعدها رجعنا إلى المكتب، وطلبوا مني كنس المنطقة المحيطة بالمكتب والحديقة الخلفية. ثم قام فادي بقطع أغصان من إحدى الأشجار، فوضعتها أنا وأحمد أبو النمر في العربة، وأخذتها إلى المزلة.

في الطريق، اكتشفت أنني أسير بسرعة كبيرة بالعربة، فخففت من سرعتي. ربما أصبحت، مع مرور الأيام، أتعامل مع العمل بشكل تلقائي أكثر، لكنني ما زلت أعلم كيف أوزع جهدي وأتحكم بحركتي بدل أن أترك نفسي للسرعة والاستعجال.

بعد أن انتهينا، عدنا إلى المكتب وانتظرنا باصًا قادمًا من بيروت يحمل مواد ومعدات. عندما وصل، أفرغنا الحمولة، ثم انتهى يوم العمل وعدت إلى البيت.

كان يومًا آخر من تلك الأيام التي لا تشبه بعضها. أحيانًا أبدأ الصباح وأنا أظن أنني أعرف أين سأذهب وماذا سأفعل، ثم تتغير الخطة أكثر من مرة. جرد ميت، حاوية، مكنسة، أغصان، عربة، ثم باص قادم من بيروت محمّل بالمعدات. تفاصيل صغيرة ومتفرقة، لكنها في النهاية هي التي تكوّن شكل هذه الأيام وتترك أثرها في الذاكرة.

— • —

اليوم السابع والثلاثون

١٢ آب ٢٠٢٦

ذهبنا أنا وفادي وأحمد أبو النمر وحسن أبو العسل هذه المرة إلى ريغار للمياه. أخبرنا فادي أن الريغار لم يُفتح منذ سنوات، وأنه كان مسكّرًا بالسيليكون. كانت عملية فتحه صعبة، خصوصًا أن حجم الغطاء كبير ووزنه ثقيل.

في النهاية تمكنا من فتحه، وتأكد فادي من أن الصَّبَاب يعمل بشكل جيد. لكن إغلاق الغطاء كان أصعب. أثناء محاولتنا إعادته إلى مكانه، وقع الغطاء على يد حسن أبو العسل ويد فادي. كان وزن الغطاء ثقیلاً جداً، وكان من الممكن أن يتسبب في تهشيم العظام، لكن لحسن الحظ كانت الإصابات خفيفة ولم يحدث ما هو أسوأ.

بعدها عدنا إلى المكتب. كانت هناك مهمة تسليك في حي عرب الغوار، فذهب أحمد وحسن لإنجازها، بينما بقيت أنا في المكتب.

بعد قليل جاء شخص غاضب لأن العامل الموجود في منطقته لم يكن قد رفع أكياس النفايات. ذهبت أنا وأحمد أبو النمر لرفع الأكياس. وبعد أن انتهينا، عدت مرة أخرى إلى المكتب، وأنا اجر الحواية ورغم أنها كانت ممثلة إلى النصف فقط، إلا أنها كانت ثقيلة.

في نهاية اليوم، فكرت بالغطاء الثقيل الذي وقع على أيدي فادي وحسن. أحياناً لا يحتاج العمل إلى حادث كبير كي تدرك مدى خطورته؛ يكفي أن ترى قطعة حديد ثقيلة تهوي على يد شخص أمامك، وأن تعرف أن فارق لحظة واحدة كان يمكن أن يجعل نهاية اليوم مختلفة تماماً.

— • —

اليوم الثامن والثلاثون

١٣ آب ٢٠٢٦

عملت اليوم مرة أخرى مع لؤي ميعاري (أبو علاء) في جمع النفايات الطبية. للمرة الثالثة نسلك الطريق نفسه تقريباً: عيادات المخيم، ثم صيدا، ووادي الزينة، وأخيراً مركز التأهيل المهني في سبلين. لم أعد بحاجة إلى السؤال عن المحطات؛ صار الطريق نفسه جزءاً من العمل.

غداً أصل إلى ثلاثة أرباع مدة العقد. بعد أن كانت الأيام الأولى تبدو طويلة، أصبحت الآن أعد الأيام المتبقية أكثر مما أعدّ التي مضت. كأنني لا أعلم العمل فقط، بل أنعلم كيف يمرّ الوقت.

— • —

اليوم التاسع والثلاثون

١٤ آب ٢٠٢٦

عملت اليوم مهمتين مع حسن أبو العسل. ذهبنا لإنجازهما على الموتوسيكل، وكنت أحمل أسياخ التسليك على كتفي. لم يكن وزنها قليلاً، وشعرت بنقلها طوال الطريق.

كانت المهمة الأولى في الشارع قرب الجميزة. واجهتنا مشكلة بسبب حركة السيارات؛ كلما بدأنا العمل اقتربت سيارة أو مرّت من المكان، فنضطر إلى التوقف والانتظار حتى يصبح الطريق آمناً، ثم نعود إلى العمل من جديد. لم يكن التسليك صعباً بقدر ما كان العمل وسط حركة السيارات مزعجاً ومتقطعاً.

بعد أن أنهينا المهمة الأولى، توجهنا إلى المهمة الثانية، وكانت في زاروبة ضيقة. كان هناك ريغار في داخل الزاروبة. بدأ حسن بالتسليك من ريغار موجود في الخارج، ثم طلب مني أن أدخل وأفحص الريغار الداخلي.

ترددت قبل أن أدخل. تذكرت عماد قبل نحو أسبوعين، عندما دخل زاروبة ضيقة أثناء العمل وتعرّض لصعقة كهربائية. لذلك لم يكن الدخول بالنسبة إليّ مجرد خطوة عادية؛ كنت أفكر بما يمكن أن يكون موجوداً في الداخل. دخلت بحذر ورفعت الغطاء. وجدت أن الأمور سالكة، فأخبرت حسن.

هذه المرة مرّ الأمر من دون أي حادث، وتمكنا من إنجاز المهمة والعودة. ربما لا يتغير المكان كثيراً، لكنني أنا الذي أتيغير. قبل أسابيع كنت أتعامل مع كل مهمة جديدة وكأنها احتمال لمشكلة لا أعرفها. اليوم دخلت الزقاق وأنا خائف، لكنني عرفت كيف أكون حذراً وأكمل العمل.

— • —

اليوم الأربعون

١٥ آب ٢٠٢٦

كانت المهمة اليوم تغيير غطاء ريغار في حي الطوارئ. عملت مع فادي أبو النجا وأحمد أبو النمر وحسن أبو العسل.

حملنا في العربة الرمل والبحص والإسمنت وغطاء الريغار الجديد، ثم انطلقنا من المكتب باتجاه حي الطوارئ. كانت العربة ثقيلة جدًا، وتعاونت مع أحمد في دفعها. كانت المسافة طويلة، وعندما وصلنا إلى موقع العمل كنا قد استهلكنا جزءًا كبيرًا من طاقتنا قبل أن نبدأ.

كانت مهمتنا إزالة الغطاء القديم وتركيب الغطاء الجديد. بدأنا بفك الغطاء القديم، ثم جهزنا الباطون، ووضعنا الغطاء الجديد وثبتناه في مكانه. بعد أن انتهينا، عدنا باتجاه المكتب. كانت العربة أخف هذه المرة، لكنها بقيت ثقيلة. بدل الرمل والبحص والإسمنت، كان فيها الكومبرسور وبعض العدة، إضافة إلى غطاء الريغار القديم.

كان محمد شريفة قد خفف عنا جزءًا من الحمل منذ الصباح؛ فقد أخذ الكومبرسور على الموتوسيكل وأوصله إلى حي الطوارئ، بدل أن نضطر إلى جره معنا طوال الطريق.

وصلنا إلى المكتب في النهاية. كان اليوم الأربعاء قد انتهى، ولم يعد أمامي سوى اثني عشر يومًا حتى ينتهي العقد.

— • —

اليوم الواحد والأربعون

١٧ آب ٢٠٢٦

بدأت اليوم بمهمة كنس زاروبة الجامع. كانت الزاروبة قصيرة، ولم تتطلب وقتًا أو جهدًا كبيرًا. في الوقت نفسه، كان أحمد أبو النمر ومحمد شريفة يعملان في التسليك، لأن حسن أبو العسل كان غائبًا بسبب وفاة شقيقته.

بعد أن أنهيت مهمة الكنس، خرجت مع أحمد ومحمد في مهمات التسليك. أنجزنا المهمة الأولى والثانية بسهولة نسبية، لكن المهمة الثالثة كانت مختلفة تمامًا. كان المجرور مسكّرًا، وحاولنا جاهدين فتحه، لكن الأمر كان أكثر تعقيدًا مما توقعنا.

بعد عدة محاولات، اتصل محمد بعماد أبو سويد، الذي كان في إجازة، ليستشيريه. وبعد الحديث معه، قرر عماد أن يأتي بنفسه ويساعدنا.

عندما وصل عماد، أخبرنا أنه رغم عمله في مجال التسليك منذ ثمانية عشر عامًا، كانت هذه المرة الأولى التي يعمل فيها في هذه النقطة.

استمر العمل لبعض الوقت، وفي النهاية تمكنا من إنجاز المهمة.

عدنا إلى المكتب بعد يوم بدأ بكنس زاروبة قصيرة وانتهى بنقطة احتاج فتحها إلى خبرة ثمانية عشر عامًا، ومع ذلك كانت جديدة حتى على عماد.

— • —

اليوم الثاني والأربعون

١٨ آب ٢٠٢٦

كان من المفترض أن أذهب أنا وأحمد أبو النمر إلى صيدا لإحضار حاويات. انطلقنا من المكتب برفقة سائق الشاحنة باتجاه صيدا. كانت الرائحة داخل الشاحنة قوية، فهي في الأصل شاحنة مخصصة لنقل النفايات، ويبدو أن بعض الروائح لا تغادرها بسهولة حتى عندما تكون فارغة.

لكن قبل أن نخرج من المخيم، التقى السائق بسيارة بيضاء تحمل شعار الأونروا فأوقف الشاحنة ونزل ليتحدث مع سائق السيارة. عندما عاد، أخبرنا أن الشخص الموجود فيها هو المسؤول عن تسليمنا الحاويات في صيدا، لكنه مشغول اليوم داخل المخيم، ولن يعود إلى صيدا قبل نحو ساعة ونصف.

اتصل أحمد بنبيل ليستشير، وسأله إذا كان من الأفضل أن ننتظر أو نعود إلى المكتب ونؤجل المشوار إلى الغد. طلب منا نبيل في البداية أن ننتظر قليلاً، لكن بعد دقائق اتصل بنا مجدداً وطلب منا العودة إلى المكتب. عدنا، وبعدها خرجت مع فادي ومحمد شريدة في مهمة تسليك.

محمد أصبح يعلّق كثيراً على موضوع كتابتي لليوميات. في اليوم السابق، مثلاً، قال مازحاً: «لازم نخلص بكير اليوم، لأن علاء بده يروح يعمل كباية شاي ويقعد يكتب.»

واليوم، ونحن في طريقنا إلى مهمة التسليك، سألتني محمد: «كتبت مباح عني؟»

أصبح واضحاً أن اليوميات لم تعد شيئاً أكتبه وحدي في البيت بعد انتهاء العمل؛ بدأت تدخل، بطريقة أو بآخري، في أحاديثنا أثناء العمل.

أنجزنا مهمة التسليك وعدنا إلى المكتب، ومرّ اليوم بسرعة نسبياً. وفي طريق العودة، بقي سؤال محمد معي: «كتبت مبارح عني؟» كأن اليوميات التي كنت أكتبها عن الآخرين من بعيد، بدأت تصل إليهم هم أيضاً.

— • —

اليوم الثالث والأربعون

١٩ آب ٢٠٢٦

ذهبنا اليوم إلى مكتب الأونروا في صيدا بالشاحنة لإحضار حاويات جديدة سثوّرَ في المخيم. كان معي أحمد أبو النمر وأبو نوح، إضافة إلى سائق الشاحنة. كان أحمد فلاح، مدير العمليات في الأونروا، في انتظارنا هناك.

صعدت إلى الشاحنة، بينما بدأ أحمد وأبو نوح بفرز الحاويات وفق توجيهات أحمد فلاح، ثم كانا يرفعان كل خمس حاويات، مضغوطة فوق بعضها، إلى الشاحنة. كانت مهمتي سحب الحاويات وترتيبها في الداخل.

كانت الحاويات ثقيلة بعض الشيء، لكنها لا تقارن أبداً بوزن الحاوية عندما تكون ممتلئة بالزباله. وأنا أراقب العمل، تذكرت أحمد عكاوي، الذي يعمل داخل شاحنة جمع الزباله. فهو يستلم الحاويات وهي ممتلئة، ويفرغها في الشاحنة. أعتقد أنه يستحق جائزة العامل المثالي.

حتى عندما جرح يده في أحد الأيام، لم ينتظر إجراءات التأمين البيروقراطية؛ ضمّد جرحه على نفقته الخاصة، وعاد في اليوم التالي إلى العمل. هناك عمال لا يلفتون الانتباه لأنهم يشتكون، بل لأنهم ببساطة يستمرون في العمل.

بعد أن ملأنا الشاحنة بالحاويات في صيدا، عدنا إلى المكتب. أفرغناها هناك، وبدأ فادي بتجميعها وترتيبها وتوزيعها بإشراف نبيل.

بعدها ذهب مع أحمد أبو النمر لجرّ حاوية بلا دواليب، وكانت ممتلئة. كانت ثقيلة جداً، فتعاوناً على جرّها حتى وصلنا إلى المزبلة وأفرغناها.

بعد ذلك جاءت شكوى عن زاوية لم تُنظف منذ عدة أيام، بحسب كلام الأهالي. وهكذا انتهى اليوم بمهمة أخرى، مثل كثير من الأيام السابقة: مشكلة تظهر، ثم نذهب لمعالجتها، ثم نعود وننتظر المشكلة التالية

لكن قبل أن ينتهي اليوم، اكتشفت شيئاً آخر. كنت أعتقد أن الاثنين ٢٩ آب سيكون آخر يوم لي في المشروع، وأني سأكون قد أنهيت الأيام الاثنين والخمسين.

ثم اكتشفت أن الثلاثاء ٢٥ آب هو عيد المولد النبوي الشريف، وهو يوم عطلة في مكتب البيئة. وهذا يعني أن يوم العطلة سيؤخر انتهاء العقد يوماً إضافياً، وأن عليّ أن أعمل يوم الاثنين ٣١ آب حتى أكمل الأيام الاثنين والخمسين.

كنت أظن أن النهاية أصبحت قريبة جداً. اليوم جررت حاوية ثقيلة إلى المزبلة، وفي آخر النهار اكتشفت أن عليّ أن أجزّ الأيام يومين إضافيين حتى أصل إلى النهاية.



اليوم الرابع والأربعون

٢٠ آب ٢٠٢٦

كان اليوم الخميس، ومثل ثلاثة أيام خميس سابقة، عملت مع لؤي ميعاري (أبو علاء) في جمع النفايات الطبية. سلكنا الطريق نفسه تقريباً: عيادات المخيم، ثم صيدا، ووادي الزينة، وأخيراً مركز التأهيل المهني في سبلين. لم تعد المحطات بحاجة إلى سؤال؛ صار الطريق مألوفاً إلى درجة أنني أقطعه تقريباً من دون أن أفكر فيه. ربما هذا هو معنى التكرار في العمل: ما كان غريباً في البداية يتحول تدريجياً إلى عادة، ثم إلى شيء لا ننتبه إليه إلا عندما نتوقف ونفكر فيه.

القسم السادس

اليد التي تغيّرت

من اليوم ٤٥ إلى اليوم ٥٢



اليوم الخامس والأربعون

٢١ آب ٢٠٢٦

كانت مهمتي اليوم كنس زاروبة السمك. هذه هي المرة الثالثة التي أعمل فيها في الزاروبة نفسها، لذلك أصبحت أعرف المكان وما ينتظرني فيه تقريبًا.

اشتغلت هذه المرة على مهل. لم أكن مستعجلًا لإنهاء المهمة، خصوصًا أن الزاروبة تقع مقابل السوق، ولاحظت أن الشارع الممتد من السوق حتى حسن الشايب لم يكن هناك أحد يكمنه اليوم. كنت أعرف أن إنهاء مهمتي بسرعة قد يعني أن أجد نفسي أمام مهمة أخرى، لذلك فضّلت أن أعمل بإيقاع أبطأ، وأن أعطي كل جزء من الزاروبة وقته.

الأوساخ نفسها لم تكن من النوع الذي يبدو مخيفًا، لكنها كانت منتشرة في كل مكان: قناني مياه بلاستيكية، أكواب قهوة، أعقاب سجائر، أغلفة السكاكر وقطع صغيرة من الورق والبلاستيك. أشياء صغيرة يرميها الناس وينسونها، ثم يأتي شخص آخر وينحني ليلتقطها واحدة واحدة.

ومع مرور الوقت، بدأت أشعر أكثر بوطأة الانحناء المتكرر. ليست هناك حركة واحدة صعبة، لكن المشكلة في تكرارها عشرات ومئات المرات: تنحني، تلتقط، تضع في الحاوية، ثم تمشي بضعة خطوات وتعيد الحركة نفسها. العمل يبدو بسيطًا من بعيد، لكن الجسد يعرف عدد المرات التي انحنى فيها.

في النهاية أنهيت الزاروبة وعدت إلى المكتب. لم يكن اليوم من الأيام التي يحدث فيها شيء استثنائي، لكنه كان من تلك الأيام التي تشعر فيها بتعب العمل في جسدك أكثر مما تشعر به في ذاكرتك. كلمة «كنس» تختصر المهمة، لكنها لا تختصر الوقت ولا التكرار ولا عدد المرات التي ينحني فيها الجسد.

اليوم السادس والأربعون

٢٢ آب ٢٠٢٦

ذهبت اليوم أنا وأبو نوح إلى زاوية قريبة من المكتب. كانت هناك كمية من أغراض البيت مرمية في المكان: فرشاة، حصيرة، صحن، فناجين قهوة، أحذية وقطع من الكتب. وضعناها في العربة الكبيرة، ثم انطلقت باتجاه مزبلة درب السيم.

في الطريق كانت هناك نزلة تحتاج إلى بعض الحذر. عندما تكون العربة محمّلة بهذا الشكل، لا يكفي أن تجرّها؛ عليك أن تراقبها وتوازنها، خصوصاً في النزلات، حتى لا تخرج فجأة وتصطدم بسيارة أو بأحد المارة. أصبحت أعرف أن العربة أحياناً تحتاج إلى أن أتحكم بها أكثر مما تحتاج إلى أن أسرع بها.

في طريق العودة توقفت قليلاً واسترحت. لم أعد أشعر أن الاستراحة تعني أنني عاجز عن إكمال المهمة. أصبحت أراها جزءاً طبيعيّاً من العمل، خصوصاً عندما تكون العربة محمّلة.

بعدها ذهبت مع أحمد إلى زاوية في حي حطين. كانت أكوام النفايات كبيرة، واضطرت إلى الذهاب إلى المزبلة مرتين لإفراغ الحاوية الكبيرة. وفي طريق العودة أخذت استراحة أخرى. وأنا جالس، تذكرت الأيام الأولى من المشروع، عندما كنت أجزّ الحاوية بأقصى سرعة تقريباً، ثم أجد نفسي بعدها ألثت وأشعر أنني استنزفت كل طاقتي. أما الآن، فأنا أجزّها ببطء أكبر. أتوقف عندما أحتاج، وأعود إلى العمل عندما أستعيد نفسي.

ربما لم تصبح الحاوية أخف، ولم تصبح أكوام النفايات أصغر. الذي تغيّر هو أنا. بقيت ستة أيام عمل فقط، ولم أعد أريد أن أصل إلى النهاية بأسرع ما يمكن. يكفيني أن أصل إليها وأنا ما زلت قادراً على جرّ الحاوية.

— • —

اليوم السابع والأربعون والثامن والأربعون

٢٤ آب ٢٠٢٦

بدأ اليوم عندما خرجت مع فادي إلى المذيلة. كانت شاحنة الكومبوتر، أي شاحنة ضغطت النفائات، متوقفة بسبب كسر إحدى فيتاساتها. طلب فادي الفيتاس المكسور، ثم عدنا إلى المكتب. بعدها طلب مني أبو جلال أن أكنس أمام مكتب الشؤون، ثم انطلقت مع حسن أبو العسل في ما يشبه ماراثونًا لتسليك الريغارات. بدأنا في السوق، ثم بستان القدس، والتحق بنا أحمد أبو النمر، وبعدها وصلنا إلى البركسات وحي الطوارئ، حيث كانت المهمة الأصعب واستغرقت وقتًا طويلًا. استنزفت المهمة حسن بشكل واضح، خصوصًا مع تحريك الأسياخ بالمنيفيل، وكان يعتقد أن القسطل مكسور. كانت شمس آب تضرب بقسوة، وعدنا إلى المكتب تقريبًا مع انتهاء الدوام.

لكن يومي لم ينتهِ هناك. كان الشارع الممتد من السوق حتى حسن الشايب من دون عامل كنس، وكان سيبقى كذلك حتى الأربعاء بسبب عطلة الأحد والمولد النبوي. اقترحوا عليّ أن أكنسه مقابل أن آخذ يوم الأربعاء عطلة. ترددت ثم وافقت، على أن يكون الاثنين ٣١ آب إجازتي. أخذت الحاوية الكبيرة وانطلقت إلى الشارع. كانت الأوساخ منتشرة في كل مكان: قطع خشب وبقايا نفائات وأشياء صغيرة تحتاج إلى الانحناء والتقاطها واحدة واحدة. مرّ فادي وأخبرني أن أبو علاء ينتظر الحاوية، فاقترح أن أخذها إلى بيته بدل إعادتها إلى المكتب، وكان بيته أقرب. جررتها إلى هناك، وأنا أفكر أنني لم أعد فقط أعدّ الأيام المتبقية؛ صرت أساوم معها: يوم عمل مقابل يوم راحة. بقيت أيام قليلة جدًّا، وربما لهذا أصبحت النهاية أخف، حتى لو بقيت الحاوية ثقيلة.

— • —

اليوم التاسع والأربعون

٢٦ آب ٢٠٢٦

أخبرني طارق صباحًا أن مهمتي اليوم هي تفريغ شاحنة من المواد الغذائية، أنا وأحمد أبو النمر وأبو نوح والقرموطي.

لم تصل الشاحنة إلى مركز الأنشطة النسائية حتى الساعة العاشرة تقريبًا. انطلقت من المكتب ووصلت لأجدها مليئة بالمواد الغذائية: أرز، عدس، ملح، معكرونة وغيرها. بعضها كان في أكياس، وبعضها الآخر في كراتين.

في البداية ظننت أن المهمة ستكون مجرد نقل المواد من الشاحنة إلى داخل المركز، لكنني اكتشفت سريعًا أن علينا نقلها نزولًا عبر حوالي سبع درجات، ثم الدخول إلى المبنى والصعود إلى طابق آخر.

حملت معي جالون زيت سعته عشرة ليترات. وعندما وصلت إلى الغرفة شعرت بالإرهاق من النقلة الأولى فقط.

عدت إلى الشاحنة، فوجدت القرموطي وأبو نوح، بينما كان أبو النمر قد انشغل بمهام التسليك. اتفق الجميع على أن ثلاثة عمال لا يكفون لإنجاز المهمة؛ كانت تحتاج، على الأقل، إلى عشرة عمال. والأسوأ أن سائق الشاحنة كان مستعجلًا، لأنه كان يفترض أن ينقل شحنتين أخريين بعد هذه. علّق أبو نوح ساخراً: «على أساس نقلتين.» أما أنا فكنت قد سمعت أنها نقلة واحدة فقط.

بدأت الاتصالات لإرسال المزيد من العمال. كنت أعرف في داخلي أن معظم هذه الاتصالات لن تؤدي إلى شيء؛ فالعمال الآخرون يكونون قد بدأوا أعمالهم في المناطق المسؤولين عنها، وبعد انتهاء دوامهم يعودون إلى منازلهم.

صعد القرموطي، رغم مشكلة الأعصاب التي يعاني منها، إلى الشاحنة، بينما توليت أنا وأبو نوح نقل الأكياس والكراتين إلى الباحة الأمامية. كانت المهمة شاقة؛ نزل الحمولة من الشاحنة، ثم نقلها إلى الداخل، وسط الصعود والنزول المتكرر.

وفي الوقت نفسه، كان سائق الشاحنة يحاول الضغط علينا حتى نعمل بسرعة. شعرت بالغضب وقلت له: «إذا إنت مستعجل، نحنا مش ذنبنا.» ضحك أبو نوح وقال: «علاء فقع أول تصريح.»

بعد قليل أخبرنا السائق أن عملية النقل الثانية والثالثة قد ألغيت. عندها خف الضغط قليلاً، وأكملنا العمل.

انتهينا من تفريغ الشاحنة عند الساعة الثانية عشرة، أي بعد انتهاء دوامنا بنحو نصف ساعة. كان طارق قد أحضر عاملين آخرين لنقل المواد من الباحة إلى

داخل المركز وصعودا عبر الدرج. ذهبت مع أحدهما لأرشدته إلى الغرفة التي يجب أن يضع فيها الحمولة، وشعرت بالتعب من جديد.

حمدت الله أنني لن أكون مضطراً إلى صعود الدرج عشرات المرات. عندما أفرغنا الشاحنة بالكامل، أخبرني طارق أنه بإمكانني المغادرة.

كانت المسافة من مركز الأنشطة النسائية إلى البيت قصيرة، لكنني اليوم شعرت أنها أطول من المعتاد. أحياناً لا يحتاج الطريق إلى وقت طويل؛ يكفي أن يكون الجسد قد حمل ما يكفي.

— • —

اليوم الخمسون

٢٧ آب ٢٠٢٦

كما كل يوم خميس، كانت مهمتي اليوم جمع النفايات الطبية من عيادات المخيم، ثم عيادات صيدا ووادي الزينة، وإفراغ الحمولة في مركز التأهيل المهني في سبلين.

أصبح الطريق مألوفاً إلى درجة أنني لم أعد أفكر بالمحطات؛ فقط نصل، نجمع، نعود، ثم نفرغ الحمولة.

بقي يومان فقط. وبعد خمسين يوماً من العمل، لم تعد النهاية بعيدة. صارت قريبة إلى درجة أنني أشعر أنها لا تنتظرني في آخر الطريق، بل تمشي نحوي.

— • —

اليوم الواحد والخمسون

٢٨ آب ٢٠٢٦

بدأ اليوم بمهام التسليك. سبقني حسن أبو العسل وأحمد أبو النمر إلى إحدى النقاط لإنجاز المهمة، بينما كانت مهمتي أن آخذ العربة وألحق بهما. انطلقت وأنا أجزّ العربة في شوارع المخيم. أكثر ما يلفتني أنني، رغم أنني أجزّها منذ ما يقارب الشهرين، ما زلت أشعر بثقلها. ربما أصبحت أعرف كيف أتعامل معها،

وكيف أوزع جهدي وأبطئ في الأماكن الصعبة، لكنها لم تصبح أخف. وأنا الذي تغيّرت طريقة حملي لها.

وصلت إلى النقطة التي اتفقنا عليها وانتظرت حسن وأحمد حتى انتهاء من المهمة. بعد ذلك انطلقنا معًا باتجاه البركسات، وأنجزنا ما كان علينا إنجازه هناك. من البركسات عدنا باتجاه مفرق حارة طيطبا، ثم وصلنا إلى بستان القدس، قريبًا من منزلنا. أنجزنا مهمة أخرى هناك، وبعدها انتقلنا إلى نقطة قريبة من منزل عمي.

كان غريبًا أن تمرّ بي هذه الأماكن واحدًا وراء الآخر. قبل أسابيع كنت أتعامل مع كل زاروبة وكل ريغار كأنهما مكان جديد، أما الآن فأصبحت أعرف الطرق والنقاط، وأعرف أين أتوقف وأين أضع العربة، وأحيانًا أعرف من شكل الغطاء تقريبًا ما الذي ينتظرنا تحته.

بعد واحد وخمسين يومًا، لم تعد العربة هي الشيء الوحيد الذي أعرفه جيدًا. صارت شوارع المخيم نفسها مألوفاً لي، كأنني لم أعد أجزّ العربة في المكان فقط، بل صرت أعرف المكان من خلال العربة.

— • —

اليوم الثاني والخمسون

٢٩ آب ٢٠٢٦

أبى اليوم الأخير في العمل إلا أن يودعني على طريقته.

غاب أحد عمال الدمبر، وهي الشاحنة الصغيرة المخصصة لجمع النفايات، فطلب مني طارق الناطور أن أحلّ مكانه. كان السائق فادي مطر وأوباما قد أنجزا قسمًا كبيرًا من العمل في شارعي التجمع والصفصاف.

بدأنا ننتقل من زاوية إلى أخرى. أدخل مع أوباما إلى الأزقة ونُخرج الحاويات، فنضعها على الرافعة في الشاحنة. وفي بعض الأماكن كانت هناك أكياس الزباله مرمية بلا حاويات، وبعضها كان ممزقًا، فكان علينا أن نجمعها ونضعها في الحاوية أو الدمبر مباشرة. انتقلنا من زاروبة إلى أخرى حتى امتلأت الشاحنة.

ذهبت مع فادي إلى معمل فرز النفايات في صيدا. رأيت هناك جبل الزباله لشهير، ودخلنا المعمل لإفراغ الشاحنة. كانت كمية الزباله كبيرة جدًا: عشرات العمال، والشاحنات، ومكنات الفرز
أما الروائع فلا تُكتب.

أكملنا العمل في المخيم وأنهيينا جميع الزوايا، ثم ذهبنا مرة ثانية إلى المعمل. هناك سألت أحد العمال عن أجرته اليومية، فقال خمسة عشر دولارًا. كانت أقل من العشرين دولارًا التي أحصل عليها مقابل ساعات عمل أقل. تذكرت للحظة عمال شركة (رامكو) المسؤولة عن جمع النفايات في بيروت؛ يوميتهم عشرة دولارات فقط مقابل عشر ساعات عمل. وتذكرت أيضًا تلك السيدة التي سألتني وأنا أجز العربة: «وليش المظلومين ما بيتحدوا؟»

في طريق العودة، سألني فادي إن كنت مستعجلًا، لأنه كان يريد تعبئة البنزين. قلت له إنني لست مستعجلًا.

كان يفترض أن يملأ البنزين ثم يعود إلى الموقف قرب حاجز الحسبة جنوب المخيم. فكرت أن أمرّ على المكتب لأودع الشباب، لكننا مررنا من دوار العربي، واكتشفت أن الطريق من هناك إلى البيت أقرب. فنزلت. لم أمرّ على المكتب. بالأمس قال أحمد أبو النمر لحسن أبو العسل: «علاء بكره آخر يوم، لازم تودعه.» فرد حسن: «أنا ما بحب الوداع.» وأنا أيضًا لا أحب الوداع.

وهكذا انتهى العمل من دون وداع رسمي. لا مصافحة أخيرة، ولا صورة، ولا لحظة يُقال فيها إن العقد انتهى. فقط نزلت من الدمبر عند دوار العربي، ومشيت إلى البيت.

خلال اثنين وخمسين يومًا، عملت في أكثر من مهمة: كنس الشوارع، جرّ الحاويات، تسليك الريغارات، جمع النفايات الطبية، نقل المعدات والمواد الغذائية، والعمل مع الدمبر. اثنان وخمسون يومًا لم تُنقص الحاوية وزنها، ولا الشارع اتساعه، ولا الرائحة حدّتها.

الذي تغيّر هو اليد التي أمسكت بالمقبض. صارت تعرف ثقل العربة، وانحناءات الشوارع، ومتى تدفع ومتى تتوقف قليلًا، ومتى يكون الطريق إلى البيت أقرب

من الطريق إلى المكتب. في اليوم الأول كنت أعدّ الأيام التي تفصلني عن النهاية. وفي اليوم الأخير، لم أعد أعدّ شيئاً. نزلت من الدمبر عند دوار العربي ومشيت.

وبقي سؤال السيدة معلقاً فوق عربة النفايات:

«وليش المظلومين ما بيتحدوا؟»

معجم صغير

تُرد في اليوميات كلمات مهنية ومحلية. يوضح هذا المعجم معناها في سياق العمل كما تظهر في النص.

روستلر: لائحة الأسماء المسجلة أو المقبولة ضمن المشروع.

ريغار: فتحة تفتيش لشبكة الصرف الصحي، يغطيها عادة غطاء معدني أو إسمنتي.

التعزيل: إزالة الرواسب والفضلات المتراكمة من الحفر والمجاري.

فورمان: المشرف الميداني على فريق العمل أو على منطقة محددة.

دمبر: شاحنة صغيرة تُستخدم لنقل النفايات داخل المساحات الضيقة.

كومبكتلر: شاحنة تجمع النفايات وتضغطها داخل حاويتها.

كومبرسور: آلة ضاغطة تُستعمل في أعمال الحفر وتكسير الباطون.

منيفيل: ذراع تدوير يدوي يُستخدم هنا مع معدات فتح الانسدادات.

بئر إنكليزي: تسمية محلية لحفرة أو خزان تجمع ضمن شبكة الصرف.

بورة: أرض خالية أو مساحة مهملة قد تُرمى فيها النفايات.

الكلس: مادة تُستخدم في سياق النظافة للتعقيم والحد من الروائح.

عن الكاتب

— • —

علاء كمال العلي

علاء العلي كاتب ومخرج أفلام وفنان متعدد الوسائط من أصل فلسطيني، ولد ونشأ في لبنان. عمل مع فنانين محليين ودوليين على أفلام ومشاريع وسائط متعددة تستكشف القضايا الاجتماعية والثقافية والسياسية.

يستثمر علاء خبرته حاليًا في تطوير مشروع أفلام قصيرة بعنوان «رسائل من الشتات»، ويهدف من خلاله إلى تقديم قصص إنسانية مرتبطة بالهوية الفلسطينية والتجارب الفردية والجماعية. كما شارك في مشروع «زمن معلق» بفيلم قصير بعنوان «رحلة كنباي».

علاء هو أحد مؤسسي Studio Camps «ستوديو المخيمات»، وهو تجمع مستقل لفنانين فلسطينيين ولبنانيين. كما عمل في صفحة أسبوعية بعنوان «مخيمات» في صحيفة الأخبار اللبنانية، تركز على قضايا الفلسطينيين في لبنان.